
إسكندرية
كان ياما كان
حكايات الجد سلامة
أحمد حامد عبد

اسكندرية كان يا مكان

أحمد حامد عيد

نوع العمل : رواية

الكاتب : أحمد حامد عيد

تصميم الغلاف : هبة فتوح

تعبئة وتنسيق : مريم حسين

هذا العمل تم تحت اشراف فريق

كيان اللا رواية للنشر الالكتروني

لينك الجروب

جروب اللا رواية

لينك البيدج

اللا رواية للنشر الالكتروني

إن تم تحميل هذا العمل من موقع آخر أو مكان آخر فيعد إنتهاكا لحقوقنا وسرقة أعمالنا وسرقة حق المؤلف

مقدمة

الإسكندرية لم تُولد كمدينة عادية على شاطئ، وُلدت بقرار إمبراطوري بأن يلتقي الشرق بالغرب في نقطة واحدة.

أسسها الإسكندر الأكبر الذي حملت اسمه في 21 يناير 331 ق.م كمدينة يونانية، ووضع تخطيطها المهندس الإغريقي دينوقراطيس لتقوم بجوار قرية الصيادين القديمة راقودة (راقودة). لم تكن مجرد ميناء، وفي أقل من قرن أصبحت عام 250 ق.م أكبر مدينة في حوض البحر الأبيض المتوسط، لأنها صُممت لتكون عاصمة لا سوقاً.

سر قوتها أنها لم تكتفِ بالحجر. حين

صـــارت عـاصـــمـة حكم البطـالمـة تحولـت إلى مركز ثقـافي وســـيـاســـي واقتصـــادي للعـالم القـديم، واكتســـبـت شـــهرتهـا من جـامعتهـا ومجمعهـا العلمي "الموســـيون" ومكتبتهـا الـتـي تُـعـد أول مـعـهـد أبـحـاث حـقـيـقـي فـي التـاريخ، ومن منـارتهـا التي أصـــبحـت أحـد عجـائـب الـدنيـا الســـبع. كـانـت المـدينـة موقعـاً لـلـمـنـارة، إحـدى عـجـائـب الـدنـيـا الســـبـع، ومكتبـة الإســـكـنـدريـة الأســـطوريـة، وكـانـت ذات يـوم الـمـركـز الـثـقـافـي الأكـثـر حـيـويـة فـي العـالم القـديم حتى أنـهـا كـانـت تنـافس أثينـا اليونـانيـة. بُنيـت المنـارة بين عـامي 285 و280 ق.م أيـام بـطـلـيـمـوس الـثـانـي، وكـان

يُرى ضوءها من عرض البحر قبل أن يدمرها زلزال ما بين 1303 و1349 م.

الإسكندرية لم تمت مع البطالمة. تجول في شوارعها يوليوس قيصر ومارك أنطونيو في قصر كليوباترا السابعة على جزيرة أنتيروديس، وصلى فيها الرومان والبيزنطيون والعرب، وغرقت أجزاء منها تحت الماء. تقول الحفريات إن نحو 20% من المدينة التي بناها الإسكندر اختفت تحت المياه بسبب الزلازل ما بين القرنين الثالث والثامن، ومع ذلك ظلت المدينة تطفو فوق التاريخ لا تحته. أبو قير وهيراكليون غاصتا بالكامل، لكن الإسكندرية أعادت رسم شاطئها كل مرة،

من قلعة قايتباي المملوكية فوق فاروس، إلى كورنيشها الحديث الذي لا يزال ينظر لنفس البحر.

إنها ليست حكاية مدينة واحدة، بل طبقات من حضارات فوق بعضها: فرعونية في راقودة، إغريقية في تخطيطها الشطرنجي، بطلمية في مكتبتها، رومانية في مسارحها، إسلامية في مساجدها، ومتوسطية في روحها. كل مدينة تُقاس بعمرها، إلا الإسكندرية تُقاس بقدرتها على أن تولد من جديد دون أن تنسى من كانت.

يلا نحكى الحكايه على لسان الجد سلامة اللى اتولد عام 1918ونشوف أجمل حكايه

لـعـروس الـبـحـر الـمـتـوســـط فـى الـقـرن العشرين

الفصل الأول

حكاية بدايتها 1918 في حارة ابن الوردي، بمنطقة بحري

الحارة الضيقة اللي لو فردت إيدك تلمس الحيطة اللي قدامك، وتسمع نفس جارك وهو نايم.

أنا اسمي سلامة، لا باشا ولا خواجة. أنا ابن المراكبي اللي ريحة إيده ملح وشبك، وعمره ما لبس جزمة.

أول صوت دخل ودني غير صوت أمي كان هتاف. 12 مارس 1919، وأنا لسه ملفوف في بطانية صوف، الطلبة طالعين من سيدي المرسى أبو العباس رايحين على المحافظة يصرخوا "مصر

للمصـــريين". أمي الله يرحمها قالت لي بعدين:

_"خبيت وشـــك في صـــدري يا ســـلامة من الرصـــاص اللي كان فى كل زاوية من المينا للكورنيش

كبرت ولقيت الدنيا بتتكلم كل اللغات في جملة واحدة. كنا بنقول عليهم "المتمصـــرين". بعد الحرب الكبيرة الأولى كان في مصـــر 200 ألف أجنبي، والطليان لوحدهم 55 ألف ســـنة 33. لدرجة إن ملك إيطاليا فيكتور عمانويل جه اســـكندرية بنفســـه يفتتح "مدرســـة فيتوريو" واقف في البلكونة واتفرج على جمال اسكندرية

و أنا عندي 12 سنة أشتغلت صبي الخواجة كوستا اليوناني في محل خردوات بشارع سعد زغلول. كنت بمسح الغليون بتاعه وأنا بسمعه يحكي عن كافالا، وأجري أجيب القهوة السادة للخواجة، وأجيب السبيرتو للأسطى حنفي اللي فاتح جنبنا صاحب ورشة الأحذية

عيني كانت تشوف الطليان قاعدين على القهوة يلعبوا كوتشينة ودخان الغليون معبي المكان. و كنت بشوف اليهود قافلين محلاتهم يوم السبت والستاير نازلة. ورجلي كانت تحس برجة الأرض لما الإنجليز يعدوا بالخيول والصرمة بترن على الأسفلت.

بس كنا كلنا.. مصري وخواجة ويهودي.. بنشتري من دكان واحد، وبنهزر مع بعض، وبنحلف بحياة سيدي ياقوت. محدش كان بيسأل "إنت مين؟" كان السؤال "تشرب إيه؟"

كنت بشم ريحة قهوة إيليت وأنا معدى من شارع صفية زغلول. الكشك الخشب أبيض في أزرق اللي فتحته مدام يونانية من أوائل القرن. كنت أبص من الشباك ألاقي نجيب محفوظ قاعد في الركن بيكتب، وأم كلثوم داخلة تلف طرحتها وتطلب قهوة تركي قبل ما تطلع على المسرح.

أنا شفت الدنيا بتتغير حتة حتة.

مت سنة 2006، بس قبل ما أروح سبتلكم 3 مفاتيح وسبتلكم حكاية اسمها اسكندرية.

اسكندرية بتاعة الكتب؟ دي مش بتاعتي.

بتاعتي اللي عيشها طلياني سخن من فرن بانيني، وصوتها يوناني من قهوة إيليت، وقلبها مصري أصيل بيدق على رصيف سعد زغلول.

الحرب جت.. والقلب اتكسر

8 يوليو 1940 الطيارات الطلياني ضربت الميناء أول مرة كنت ساعتها كبرت وبقيت الدراع اليمين لكوستا. أنا وكوستا استخبينا تحت الترابيزة الخشب. 22

يونيو نفس السنة غارة قتلت اتنين وجرحت 23.

وفي نوفمبر، ليلتين 18 و19، اسكندرية ولعت.

نص قتلى الحرب كلها من المدنيين

155 ماتوا و425 اتصابوا - كانوا من الغارتين دول.

وفي عز الضرب، 22 مايو 1941، شفت بعيني الملك جورج بتاع اليونان نازل من مركب حربي في الميناء هربان من هتلر، والموكب ماشي على البحر. كوستا وقف وبكى. قال لي: "سلامة، بلدي بتغرق وأنا هنا ببيع زرايرر".

ديسمبر 1941، الإيطاليين دخلوا الميناء بطوربيدات بشرية وفجروا البارجتين الإنجليز وهما نايمين. صحيت على صوت الانفجار، لقيت ماريا بنت الجزار الطلياني بتعيط في حضن أبوها من كتر الخوف

مع أن أمها كانت مصرية بس تشوفها تقول خواجايه

الحرب خلصت وماريا مشيت مع أبوها.. وافتكرت إني هعيش بهدوء. بس 48 جت وقلبت الدنيا تاني.

لسه ياولاد الحكاية طويلة اسكندريه دى دولة مش مدينة.

الفصل الثاني

بعد ما إسرائيل قامت، واعتبروها دولة اليهود جيرانا في العطارين بقوا ماشيين يبصوا وراهم. وضعهم بقى متوتر مهما كانت جنسيتهم. يعقوب الصايغ قفل محله بدري وقال لي:

_"خلي بالك من المفتاح يا سلامة".

عارفين الثورة اللى كانت 1952..

الضباط قالوا مصر للمصريين. كوستا ضحك بمرارة وهو بيمسح الأزاز وقال: "وأنا إيه يا سلامة؟ مش مصري؟ أنا مولود هنا قبل أبوك".

وفى سنة 1956..

أكتوبر 56 بعد العدوان الثلاثي، ناصر

سحب الجنسية. في نفس الأسبوع قبضوا على ألف يهودي وصادروا 500 شركة.

كوستا نده لي في الفجرية. كان لابس بالطو خفيف وشايل شنطة واحدة. حط في إيدي المفتاح النحاس وقال:

_"دي أمانة يا سلامة.. دي بيوت ناس".

مارتينا كانت واقفة وراه، بتعيط. قالت:

_"بابا بيقول لازم نمشي، الإنجليز بيطردونا".

وزير الداخلية زكريا محي الدين طلع

٩ ديسمبر قال طردنا 1452 بريطاني وفرنسي رسمي. بس الحقيقة إن بعد 56 الغالبية الكبيرة من اليونانيين والطليان

والفرنساوية واليهود سابوا البلد. اليهود لوحدهم من 60 ألف، خرج 23 لـ 25 ألف في شهور، بشنطة ومبلغ صغير وورقة "تبرع" بممتلكاتهم.

مدام إيليت ما مشيتش في 56. فضلت تمسح الترابيزات لوحدها وتقول: "اسكندرية هترجع". بس في 1961 التأميمات كلت محلها. اليونانيين اللي فضلوا، 57% منهم مشوا قبل أو بعد ناصر، والذروة كانت فى 61. جت لي في يوم شتا، حطت المفتاح الحديد في إيدي وقالت:

_ "خلي ريحة القهوة في المكان صاحية يا سلامة"

ومشـــيـت على المركـب وهي لابســـــة نفس الفستان الأزرق.

فضـــلـت 40 ســـنـة أفتح بـالمفـاتيح كـل يوم. أهوي دكـان كوســـتـا عشـــان ريحـة الغليون مـا تموتش، أمســـح صـــور إيليـت اللى فى الـقـهـوة، أكـنـس قـدام بـاب يـعـقـوب وبـعـدهـا اطلع شـــقتـه وافتح الشـــبـابيـك على فكرة يعقوب قبـل مـا يمشـــي كتبلى شـــقتـه ومهنش عليـا اقعـد فيهـا. المـدينـة بعـد 56 "اتخـدرت وفقـدت الثقـة في نفســـهـا" زي مـا كـاتـب يوناني قال عنها.

كنـت بتفرج على اســـكنـدريـة وهي بتكبر وتتخنق. العمـارات طلعـت مكـان الفيلات،

البحر بعد، واللهجة اتغيرت. ولادي كبروا وسافروا القاهرة ومابقوش ييجوا.

2002، وأنا عندي 84 سنة، مشيت بالعكاز لحد المكتبة الجديدة اللي فتحوها على البحر. وقفت قدام الإزاز وبكيت. مش عشان المبنى حلو، عشان افتكرت كوستا وهو بيقول لي إن أول مكتبة اتحرقت، وإن الكتب راحت.

*الجد سلامة بيقول لاحفاده وهو بيحكى

_"أنا يا ابني لا بطل ولا زعيم.. أنا بس كنت واقف على الرصيف والدنيا بتعدي. ولو الحكاية دي ليها فايدة، تبقى إنك تعرف إن البلد مش طوب وزلط.. البلد

نـاس قـاعـدة عـلـى قـهـوة واحـدة، وبـتـحـكـي نفس الحكاية"

الفصل الثالث

الأحفاد متكوّمين حوالين الجد سلامة، وقلوبهم بتسمع قبل ودانهم، كأن البحر نفسه موطّي حسّه عشان يسمع معاهم.

المغربية داخلة، فارشة نورها الدهبي على الشيش، وريحة اليود داخلة من البلكونة تغسل الصالة.

يحط شاله الصوف على كتفه، يسند عكازه الخشب جنبه، يقلب الشاي أبو نعناع في الكباية الإزاز على مهله، يبص لهم واحد واحد كأنه بيعدّ كنوزه، ويقول:

_"اسمع يا ابني.. وارمي ودنك معايا. في اسكندرية كان فيه جرس واحد، بس صوته كان بيرجّ الدنيا كلها."

_"أنا سلامة، ابن المراكبي. أبويا ساب

البحر بعد خناقة مع صاحب المركب، ونزل يشتغل قهوجي."

أبويا كان بيحكيلي وهو بيجري بالصواني في قهوة أوروبا في ميدان القناصل، اللي سمّوه بعدين ميدان محمد علي. كان يقول أول صفقة قطن اتكتبت هناك سنة 1865، والخواجات قاعدين ببدلهم البيضا يصرخوا "كرنك! منوف! أشموني!" كأنهم بيبيعوا عيالهم. كانوا بيستنوا جورنال الأنباء اللي جاي بالباخرة من أوروبا، لو اتأخر يوم واحد، واحد يفلس والتاني يبقى مليونير. السمعة كانت كل حاجة، والتوقيت كان سيف.

وكان يحكي إن بورصة اسكندرية نفسها

اتأسست بعدها في 1883، كأول سوق عقود آجلة منظمة للقطن في مصر، وبعدها بكام سنة لما الشغل كبر سابوا القهوة وراحوا مبنى جنبها. والخواجات اللي ماسكين السمعة عملوا هيئة اسكندرية للقطن، اللي سمّوها بعدين AGPA، عشان يحموا مصالحهم هما مش مصالح الفلاح.

وأنا لسه ما اتولدتش، أبويا شافهم سنة 1899 أيام الخديوي عباس التاني بيبنوا المبنى الرخام أبو شبابيك عالية اللي كان بيتصوّر على كروت البوستة. كان بيبص له كأنه جامع. المبنى ده بقى قلب بورصة اتولدت بدري وبقت مركز عالمي للقطن

المصـــري لحـد مـا الإنجليز مســـكوه من رقبته.

أنـا دخلـت نفس المبنى ده وأنـا عنـدي 11 ســـنـة، يعني ســـنـة 1929، صـــبي مراســـلـة قبـل مـا اشـــتغل عند الخواجة كوســـتـا. أجري بـالورق بين الســـمســـــار اليونـاني والطليـاني والشـــــامي. كنـت بشـــم ريحـة العرق والقطن والخوف في نفس واحد.

أبويـا حكـالي عن الكســـرة الكبيرة. ســـنـة 1907 البـنـوك وقـعـت والـعـقـارات انـهـارت، والنـاس اللي لعبـت في العقود الآجلـة لبســـت جلابيـة مقطعـة. الجرايـد كـانـت مليـانـة إعلانـات تصـــفية لشـــركات الحكومة ســـابت الســـوق يغرق لحـد مـا قنّنوا العقود ســـنـة

1909 عشـــان يلمّوا اللي فاضـــل. أبويا خســـر حتة أرض في كفر الدوار يومها، وأمي لمّت هدومها ورجعت لأهلها وقالت له الجملة اللي هســـمعها أنا بعد أربعين سنة بالحرف:

_"إنت بعت مستقبلنا في بالة قطن".

وأنا عدت نفس الغلطة. اتجوزت فاطمة ســـنة 1941، وحوشـــت قرشـــين من شـــغل المينا عشـــان أشـــتري أرض. ســـنة 1946 بعد الحرب، الإنجليز فتحوا وقفلوا الســـوق على مزاجهم، الســـعر نزل في يوم واحد من 40 قرش لـــــ 12. بعت دهب فاطمة ودخلت مضـــاربة على "أشـــموني". الجرس

ضـــرب، وأنـا خســـرت. فـاطمـة بصـــتلي وهي بتعيط وقالت:

_"إنـت مـش بـعـت أرض، إنـت بـعـت ابـنـك اللى لســـه في الـدنيـا غريـب وســـابتني تلات شهور.

لمـا رجعـت عشـــان خـاطر الواد، كنـت بـاخـد ســـيـد وهو عنـده 12ســـنـة أقعـدّه جنبي في الـقـهـوة بـعـد الـمـغرب، أعـلـمـه يـعـد الـقـروش على صينية الشاي وأقوله:

_ "إنـت يـا ســـيـد هتبقى أول ســـمســـار مصـــري بجـد، مش صـــبي مراســـلـة زي أبوك".

كـان بيضـــحك ويحفظ الأســـامي كـأنـه نشـــيـد:

كرنك، منوف، أشمونى. وكنت بصدق نفسي.

الوجع الأكبر كان سنة 1950. سيد بقى عنده 15وعايز يبقى سمسار. خدته من إيده ودخلت البورصة أقدّم له. الموظف فتح الدفتر الضخم، بصلي من فوق نضارته وقالي بالحرف:

"عندنا 35 سمسار متسجل، اتنين بس مصريين." وبعدين سيد صغير مينفعش يبقى سمسار

ما أنا اتجوزت سنة 34 كنت شغال مع كوستا وواد كسيب

16 سنة وفاتح بيت مش النهارده الشباب بيتجوز فوق التلاتين

سكت. بصيت لنفسى وافتكرت أبويا وهو بيحكيلي عن المبنى الرخام. سمعت الجرس بيرن في ودني ومفيش حد بيتحرك.

الموظف كمّل كأنها شتيمة: "والرئيس يومها سوري، اسمه جول كلات بك."

حسيت إني غريب في بلدي، وأنا ابن اللي كان بيشيل لهم الشاي.

في الوقت ده السوق ما كانش بتاعنا أصلاً. الإنجليز كانوا ماسكينه عن طريق أكبر عيلتين، كارفر وموس. ولما ابن كارفر اتجوز بنت موس، بقوا إمبراطورية

واحدة قافلة على المحالج والبواخر وحتى الهوا في مينا البصل. كنا بنبيع القطن لليفربول أكتر ما بنبيعه للقاهرة، والتليفون يرن من مانشستر يحدد مصير فلاح في الدلتا.

وبعدين جت 52. الثورة قامت، والإنجليز مشيوا، واليونانيين باعوا المحالج. قلنا أخيراً هتبقى بتاعتنا. دخل اللعبة ولاد البلد اللي كانوا بيحلموا بيها من أيام طلعت حرب باشا بتاع بنك مصر، ومحمد فرغلي باشا رئيس هيئة مصدري القطن. أنا وقتها كنت 34 سنة، بس حاسس إني 80 قعدت على نفس كرسي أبويا في القهوة،

أتفرج على المبنى الرخام وهو بيفضى حتة حتة.

الدولة أممت، والأرض اتفتت، والجمعيات الزراعية خنقت الفلاح بالورق. البورصة اللي كانت بتحدد سعر العالم بقت ذكرى في كروت بوستة قديمة.

أنا سلامة. لا شفتها وهي بتتولد، بس شفتها وهي بتموت. سمعت من أبويا إنه بيخسر أرضه في 1907، وشفت مراتي تسيبني عشان بالة قطن في 1946، وشفت ابني يترفض عشان اسمه مش خواجة في 1950.

القطن الأبيض ده كان دهب، آه. بس إحنا اللي ما عرفناش نحرُسه، فبقى كفن.

الفصل الرابع

الجد سلامة:

_تعالوا يا ولاد.. اقعدوا جنبي. هاتوا كوباية الشاي وتعالوا اسمعوا.

واعرفوا إن أقدم شارع في التاريخ.. شارع فؤاد ده، مش شارع تمشي فيه وخلاص.

ده واحد عجوز زيي، بس عايش بقاله أكتر من 2300 سنة ولسه واقف يتفرج علينا.

أنا أول مرة أبويا خدني هناك كان عندي 12 سنة، سنة 1930، وقالي: "امشي وارفع راسك".

الشارع ده يا ابني أصله مش من أيام

الملك فؤاد خالص. ده اتعمل مع اسكندرية نفسها سنة 331 قبل الميلاد على إيد المهندس دينوقراطيس .

وكانوا مسميينه "الطريق الكانوبي". ليه؟ عشان كان مرصوف رخام أبيض من أوله لآخره، وعلى الجنبين أعمدة جرانيت تخليك ماشي في معبد مش في سكة. تخيل تمشي والشمس بترد من الأرض البيضا في عينك.

هو يادوب كام كيلو صغيرين.. من العطارين أمتداد سيدي المتولي وعمارة ليبون

لحد دوران باب شرقي دلوقتي. بس كل خطوة فيه لغة وشكل.

تبص يمين تلاقي واجهة يوناني، شمال تلاقي إيطالي فلورنسي، فوقيك بلكونة فرنساوي حديد مشغول، وتحتها محل مصري بيبيع جراید من 80 سنة.

كنا بنقول عليه "باريس الصغيرة".. بس هو كان اسكندرية الكبيرة. اسكندرية اللي بتكلم الدنيا كلها.

واسمعوا الحتة دى، سمعتها من خالي رضوان الساعاتي الله يرحمه سنة 1882، يوم ما الإنجليز ضربوا المنشية بالمدافع من البحر.

كان فى واحد الناس بتقول عليه "أهبل" هو ساعات بيكون أبصر واحد فينا.

كان اشترى أراضي شارع فؤاد وباعها بعدين للناس اللي جريت من المنشية وقت القصف.. كان راجل إيطالي اسمه "فيليبو بيني"

الراجل ده يا ولاد كان معاه قرشين، وماخافش. اشترى الأرض دي كلها وهي صحرا وسكة تراب. وبنى لنفسه تحفة.. قصر مافيش زيه. القصر ده هو اللي واقف دلوقتي فيه المركز الثقافي الإسباني، ومديرية الصحة، ومدرسة بلقيس.

أول ما عمل كده، الناس قعدت تضحك عليه. يقولوا:

_"بصوا للمجنون.. بصوا للفقير الغبي".

100 مليون فرنك يا ولاد رماهم في أرض ماحدش معبرها ولا ساكن فيها. قالوا عليه ضيع فلوسه.

بس البحر ليه حسابات تانية

لما المدافع ضربت و البيوت الكبيرة وقعت، والبشوات جريوا يدوروا على حتة أمان.

ماحدش افتكر غير شارع فؤاد.. أرض فيليبو بيني.

اتلموا عليه الأثرياء زي النحل على العسل. اللي كانوا بيقولوا عليه "غبي" بقوا بيبوسوا إيده عشان يبيع لهم شبر واحد.

باع واشترى، وكسب مكاسب تخلي

دماغك تصدع. والشارع اللي كان شبه نائي، بقى معقل البشوات والأرستقراطية كلها.

شفتوا يا ولاد؟

الغبي طلع هو اللي شايف بكره.

واللي بيتريقوا عليه، هم اللي وقفوا قدامه طابور بعدين.

أبويا كان دايماً يقولي:

_ "يا سلامة.. اللي يضحك عليك النهاردة عشان معاكش، بكره يخبط على بابك عشان ياخد منك".

فيليبو بيني ده كان مجنون؟ لا يا ولدي..

كان شايف اسكندرية قبل ما اسكندرية تشوف نفسها.

عرفتوا بقى ليه بقولكم امشوا في شارع فؤاد وارفعوا راسكم؟

عشان كل طوبة فيه ليها قصة..

أنا ليا ذكريات هناك ما بنساهاش. كنت بمشي كل خميس مع جدتكم الله يرحمها، نعدي من قدام مسرح سيد درويش - اللي هو "أوبرا اسكندرية" دلوقتي، في نص طريق الحرية، شارع فؤاد نفسه.

المبنى ده اتبنى سنة 1921، عمله المهندس الفرنساوي جورج بارك. واخد روح أوبرا فيينا ومسرح أوديون في باريس وحاططهم هنا في حتة أرض.

أول مرة سمعت الست أم كلثوم هناك سنة 1944، الحيطة كانت بتترعش مع صوتها. الناس بكت وهي واقفة.

وبعده بخطوتين سينما أمير، نمرة 41، على ناصية صفية زغلول. كنا نقطع تذكرة بصاغ ونص وندخل نشوف فيلمين وفاصل.

واللي يطلع بدري يروح ياخد حتة بسبوسة من "خاموس" اليوناني. ريحة الزبدة كانت بتجيب آخر الشارع.

بس الحكاية بجد مش في الأفلام يا ولاد. الحكاية في عمارة "فومارولي"، الدور التالت.

كانت ساكنة بنت إيطالية اسمها صوفيا. كل خميس الساعة 6 بالظبط، تفتح الشيش الخشب، ترمي وردة حمرا، والشباب كله يجري عشان يلقط.

في مرة طلعت ورمت وردة بيضا، ضحكت وقالت بالطلياني المكسر: "دوماني" يعني بكره. بكره ده مجاش يا ولاد.

سنة 56 بعد التأميم، عيلتها لمت الشنط وسافرت في ليلة. والشيش اتقفل.

بعدها بشهر لقيت البواب قاعد حزين بقوله مالك؟

قالي:

_"الشـــــارع ده حكـايـة.. بيحفظ اللي بيحبـه، واللي يحبه يسيبه ويمشي".

لحـد النهـارده كـل مـا أعـدي من هنـاك أبص فوق، أســـتنى الشـــيش يتفتح. بس الشـــيش عمره ما اتفتح تاني.

عشـــان كـده بقولـك يـا ابني.. شـــارع فؤاد مش حجـارة. هو دفتر، كـل واحـد فينـا كتـب فيه سطر ومشي.

إنـت بقى لمـا تمشـــي فيـه بكره، امشـــي على مهلـك. اســـمع صـــوت الرخـام القـديم تحـت جزمتـك. يمكن تســـمع صـــوفيـا بتضـــحـك، ويمكن تســـمعني وأنـا عنـدي 12 ســـنـة ماشي جنب أبويا بالجلابية والطربوش.

أنا حافظه طوبة طوبة. ولو عايزين تعرفوا سرّه أكتر، بصوا حواليكم:

هتلاقوا المتحف القومي للإسكندرية: في أول الشارع، كان فيلا الخواجة باسيلي تاجر الخشب اليوناني، على الطراز الإيطالي. باعها سنة 1954 وبقت سفارة أمريكا، والدولة اشترتها 1996. جوه حوالي 1800 قطعة أثرية من الفراعنة لحد العصر الحديث، وفيه آثار غرقانة طالعة من بحرنا.

وهتلاقوا كمان المتحف اليوناني الروماني لازق فينا برضه على شارع فؤاد، لسه متوضب بعد ترميم 10 سنين.

تذكرته بـــــ 5 جنيه للمصـــري. تدخله تحس إنك ماشي في اسكندرية البطالمة.

ومنتســـوش حدائق الشـــلالات وســـاعة الزهور في آخر الشـــارع، الســـاعة اللي بتدق كل ســـاعة قدام الجنينة. جوه بقايا ســـور اســـكندرية الإســـلامي، وصـــهريج الشـــلالات أبو 3 أدوار وأعمدة جرانيت مختلفة الأشكال.

واوعوا يفوتكو بيت الشـــاعر كفافيس اليوناني اللي كان ســـاكن في الشـــارع وطلع في "رباعية الإســـكندرية" بتاعة لورانس داريل. كانوا بيتقابلوا في صـــالة شـــاي "باســـترودس" يحكوا عن المدينة. وســـلموا على الســـينمات بلازا ورويال

وأمـيـر وريـو. دول بـنـاهـم ولاد قـرداحـي اللـبـنـانـيين. سـيـنـمـا ريو دي كـانـت الأول مـطـعـم فـول وفـلافـل لـواحـد تـركـي اسـمـه راغب، وبقت ناصية مشهورة.

وابـقـوا صـلـوا فـى مسـجـد الـعـطـارين والمقـامـات هتلاقوا مقـام عبـد الله بن علي زين الـعـابـدين، وقصـاده مقـام يـعقوب بن عبـد الرحمن. والنـاس لحـد النـهـارده بتـعـدي تسلّم.

الـمـبـانـي هـتـلاقـوهـا يـونـانـي عـلـى إيـطـالـي، بعضـهـا لسـه واقف بشـيـاكـة، وبعضـهـا الزمن أكـل منـه حتـة، بس الروح هى هى تمشـي الصـبح تشـم ريحـة البن من القهـاوي

العتيقة، وبالليل تسمع بيانو طالع من الأوبرا.

الشارع ده حكاية لوحده يا ولاد..

فكرتوني بأحلى أيام العمر

الفصل الخامس

الجد سلامة:

وفى وقت المغربية

_تعالوا يا ولاد حواليا.. قربوا الكراسي ووطوا صوت التلفزيون. أنا شفت النهارده بعد الفجر حكاية.. إنما إيه حكاية.

على قناة من القنوات، جابوا فيلم لسه طالع، واحنا قاعدين أهو في 2003. جابوا فيلم عن مدينة نايمة تحت خليج أبو قير. مدينة مش بتاعت الرومان ولا بتاعتنا، دي أقدم من اسكندرية نفسها.

قال المذيع بصوت هادي:

_ "تحت المية بعشرة متر بس، وعلى

بعد اتنين كيلو ونص من شط أبو قير، نايمة مدينة اسمها ثونيس - هرقليون".

ثونيس يا ولاد.. دي كانت أكبر مينا في مصر على البحر المتوسط قبل ما الإسكندر الأكبر يبني اسكندريتنا سنة 331 قبل الميلاد. يعني هي أقدم مننا بحوالي تلتميت سنة، وقامت وتوسعت من القرن السابع قبل الميلاد لما كانت مصر بتفتح بوابتها للتجار اليونانيين. المدينة دي ما كانتش على أرض واحدة، كانت جزر صغيرة مربوطة بقنوات، والمراكب كانت بتعدي في نص الحواري زي التاكسيات في شارع النبي دانيال. وفي قلبها معبد كبير لآمون، الإله اللي

اليونانيين سموه هرقل بعدين، الناس كانت بتيجي تحج له من كل حتة.

بس يا ولاد.. البحر ما بيسيبش حد يتكبر عليه. المدينة فضلت عايشة لحد البيزنطيين، وبعدين في النص التاني من القرن التامن الميلادي، زلزال جامد خلّى الأرض الرملية تسيح تحتها، فالمعابد والبيوت نزلوا مرة واحدة تحت المية. وفضلت نايمة 1200 سنة محدش حاسس بيها.

لحد ما جه عالم فرنساوي اسمه فرانك جوديو، نزل يغوص في خليج أبو قير سنة 2000، وقلبه كان حاسس إن في حاجة تحت. أول ما نزل، المية كانت

معكرة، وبعدين فجأة النور ضرب في تمثال جرانيت أحمر واقف زي العسكري، طوله حوالي 16 قدم يعني خمسة متر إلا حاجة بسيطة. ولقى بعديه معبد بحاله، وتماثيل لآلهة، ومراكب غرقانة.. 64 مركب و700 مرساة مرصوصين في الطين كأنهم كانوا مستنيين دورهم في المينا. ولقوا تمثال ست جميلة، الناس قالت كليوباترا، وناس تانية قالت إيزيس.. أنا بقول ست مصرية وخلاص، الجمال ما بيحتاجش اسم.

أنا خلصت الفيلم ونزلت فطرت عند محمد احمد وروحت المتحف اليوناني الروماني. وقفت قدام الفاترينة، الإزاز مشبر من

نفس الناس. بصيت للتمثال، وشه اللى طالع من المية بعد ألفين سنة، وعينه لسه بتلمع كأنه بيقول: "أخيرا حد صحاني". ساعتها افتكرت ريحة اليود في الأنفوشي سنة 58، لما كنت بنزل أجيب الجونشلّة من تحت الصخر.

عارفين يا ولاد، أنا مش بتاع كتب، أنا بتاع مية. أبويا كان بيقول عليا "سلامة غواص المية اللي مفيش زيه في بحري". كنت بنزل من غير بدلة، بنفس واحد، وأعد تحت دقيقة واتنين، ألمس الرملة الباردة بإيدي وأطلع. شط الأنفوشي لو كان بيتكلم كان حكى لكم عن العيل اللي كان بيعوم للصخرة البعيدة ويرجع بصدفة

كبيرة في بُقه. كنت فاكر إني هعرف أوصل لثونيس لو الزمن رجع بيا شوية. كنت هنزل، وأحس ببرد المية على ودايّ، وأسمع صوت النفس بتاعي بيعد، وأشوف العمود المكسور وهو نايم على جنبه، والسمك بيلعب بين الحروف الهيروغليفي. مش عشان الدهب، عشان أقول للمدينة: أنا شايفك.

لما خلص الفيلم وقبل ما أنزل أروح المتحف قلبي كان بيدق. طلعت البلكونة قبل الشروق ،البحر لقيته فى نور بعيد من مراكب الصيد. قلت له: "يا بحر.. إنت دفان شاطر أوي. دفنت بورصة القطن بتاعتي فوق في المنشية لما الدنيا

اتغيرت، ودفنت مدينة كاملة تحت في أبو قير. والاتنين.. الاتنين مستنيين حد يفتكرهم".

واحد منكم، الواد الصغير أبو نضارة، سألني:

_"طب يا جدي.. ليه المدينة دي غرقت والبورصة بتاعتك قفلت؟"

حطيت إيدي على قلبي، كان بيوجعني من الشاي التقيل، وقلت:

_"عشان يا ابني.. اللي يفتكر نفسه كبير أوي، البحر ياخده، والزمن ينساه. ثونيس افتكرت نفسها بوابة الدنيا الوحيدة فغرقت.. والبورصة افتكرت نفسها قلب العالم فماتت. إحنا يا ابني لا احنا بحر،

ولا احنا زمن. إحنا بس اللي بنحكي.. عشان اللي غرق ما يموتش مرتين".

صبولي شاي.. بس المرة دي حطوا فيه نعناع زيادة. عشان طعم الملح اللي في حكاية المدينة الغرقانة، لسه في بوقي، وعايز أغسله بحاجة خضرا من فوق الأرض.

الفصل السادس

الجد سلامة وهو بيمسح تراب الراديو الخشب

تعالوا يا ولاد.. المرة دي مش هحكي عن مدينة غرقانة.

هحكي عن واحد كان ماشي على رجليه وسطنا هنا في اسكندرية، وصوته هو اللي فضل عايم لما كل حاجة تانية غرقت.

سيد درويش.. ابن كوم الدكة اللي كنت بعدي من قدام بيته وأنا رايح أشتري طلبات للخواجة كوستا.

اسمه الحقيقى السيد درويش البحر، مولود يوم 17 مارس 1892 هنا في

اســـكنـدريـة، ومـات فيهـا يوم 15 ســـبتمبر 1923 وهو لسه عنده 31 سنة بس.

كـان المـفروض يبقى منشـــد في الجـامع، صـــوتـه وهو عيـل كـان يخلي الحجر يـدمع، بس ربنـا محوش لـه ســكـة تـانيـة.. ســكـة الشارع.

أنـا اتولـدت 1918، يعني ســنـة 1919 كنـت لسه ملفوف في اللفة في بيتنا في بحري.

أمي كـانـت تهزني على صـــوت الفونوجراف الخشب وهو بيصرخ:

"قوم يا مصري مصر دايماً بتناديك"،

والـجـيـران يـخـبـطـوا عـلـى الـحـيـطـان مـن الحماس.

وأبويا الله يرحمه، كان مراكبى وكمان في بورصة القطن كان شغال، يرجع بالليل هدومه مليانة وبر، يقعد يحكي لأمى وأنا قاعد بلعب:

_"الواد سيد ده خلّى العمال يغنوا وهم شايلين البالات. هو وبديع خيري عملوا أكتر من 70 غنوة في عز الثورة.. كل واحدة كانت طوبة في وش الإنجليز".

أنا مكنتش واعي لجنازته.. كان عندي 5 سنين بس.

بس أبويا شالني على كتفه ومشينا ورا النعش من كوم الدكة لحد المنارة. اسكندرية كلها كانت ماشية ساكتة، وكل واحد بيدندن في سره:

"يا بلح زغلول".

قالوا ساعتها إن قلبه وقف من حتة بيرة مسمومة. بس أنا بقول: قلبه وقف عشان شال صوت بلد بحالها على كتافه.

كبرت وسمعته في قهوة خبيني.. مش من بُقه هو، من اسطوانة مشروخة.

كنت عندي 14 سنة وبنزل أغوص في الأنفوشي، أطلع إيدي مجروحة من الصخر، والراديو يقول:

_"البحر بيضحك ليه".

كنت بضحك وأقول: الراجل ده نزل المية معانا من غير ما يبل هدومه. سيد هو اللي لحن "بلادي بلادي بلادي" وهو

عـايش، وبقـت نشـــيـدنـا الرســـمي بعد مـا مـات بـ 55 سنة.

عشـــان كـده ســـموه "أبو المزيكـا المصـــريـة" و "فـنـان الشـــعـب" بـجـد. مـش لـقـب.. دي شهادة ميلاد.

أنـا اللي اشـــتغلـت عنـد كوســـتـا، وشـــفـت البورصـــة بتتقفـل في الســـتينـات، وشـــفـت ثونيس نايمة تحت المية..

بـقـولـكـم: ســـيـد درويـش مـا غـرقـش. الـلـي يـحـط صـــوتـه فـي بُـق الـنـاس، الـبـحـر مـا يعرفش ياخده.

كـل مـا أســمع "زوروني كـل ســنـة مرة" في الـراديـو الـعـتـيـق بـتـاعـي، أقـوم أفـتـح الشـــبـاك على البحر وأقول له:

اســـمع يـا بحر يـا خواجـة.. ده ابننـا. ده اللي اتولد قبلي بـــــ 26 ســـنة، وعلمني وأنا لســـه بتعلم المشي إزاي أغني وأنا بغرق.

بصيت للبحر وسألته:

_"خـدت الـبـورصـــــة منـي.. وخـدت ثـونـيـس من الدنيا.. ليه معرفتش تاخد سيد؟"

الموج رد عليا وهمس:

_"عشـــــان الصـــوت يـا ســـلامـة.. الصـــوت مابيغرقش".

صـــبولي شـــاي.. بس المرة دي من غير سكر.

عشـــان مرارة فراق ســـيـد، محتـاجـة حـاجـة مرة تعدلها.

https://larewaia.blogspot.com/?m=1

الفصل السابع

الجد سلامة :

_تعالوا يا ولاد، وطّوا النور شوية. النهارده شوية عيال واقفين على القمة وكل واحد عامل فيها فتوة. طب تعالوا اسمعوا بقى الحكاية دي مش هتلاقوها في كتاب، دي كانت بتتحكي على قهوة فاروق فى بحرى على فكرة مكنش إسمها فاروق دى

أُتفتحت سنة 28 وكانت اسمها "كاليميرا" (كلمة يونانية يعني صباح الخير) صاحبتها كانت يونانية مدام ماري بيانوتي.

سنة 38 كان معدى عليها موكب الملك فاروق كان رايح

قصـــر رأس التين عشـــان يســـتلم الحكم وقفتــه المــدام وحلفــت لينزل الملــك ويشـــرب شـــاى ونزل الملك ومن ســـاعتها بقت قهوة الملك فاروق المهم خلينا فى حكايتنا

إســـكندريــة كلــهــا رجــالــة بس كــان فــى فــتــوات، مــش بــلــطــجــيــة.. لا، فــتــوة يــعــنــي ضهر الحارة.

كــان فيــه تلاتــة الكــل كــان بيحلف بيهم وأنــا شفتهم بعنيا

أولهم حميدو الفارس. بتاع الســيالــة، كتافه قــد الــدولاب، وإيــده اليمين فيهــا خــاتم نحــاس قــديم بيلمع. النــاس فــاكراه كويس عشـــان كــان بيقف على بــاب المينــا يــاخــد ســـبت السمك يوزعه على الأرامل،

وفى يوم مسابقة التجديف الكبيرة بين راس التين والسيالة. كل سنة بحري كلها كانت بتتقلب مهرجان. سنة من السنين كان اللي بيمثل راس التين واحد اسمه طلبة، واللي بيمثل السيالة الدكش. الدكش وقع عيان قبل السبق بيومين، وأهل السيالة جُم جري على حميدو: "إلحقنا". نزل المية، وكسب.

الخديوي عباس حلمي التاني نفسه كان قاعد بيتفرج. راس التين تهتف "سيالة يا سيالة ياللي مفيكيش رجالة"، والسيالة ترد "وقة ملح وقة طين على دماغ راس التين". الدنيا ولعت، وحميدو وقف في النص، زعق زعقة واحدة فضّ الالتحام.

الخديوي عجبته الحكاية، راح رامي له ريالات فضة على الأرض. حميدو بص للريالات، وعدّى من فوقها وسابها. اعتبرها إهانة.

الخديوي اتغاظ، استدعاه للقصر بتاع راس التين، وقال له بارز الخادم الأفريقي بتاعي. ضخم قد الحيطة. حميدو قال له "على الله يا أفندينا". أول ما قرب، اداله روسية واحدة.. التاني طب وقع. من يومها طلع فرمان من الخديوي: "يتسمى حميدو الفارس". وبعد سنين فريد شوقي خد اسمه عمل بيه فيلم، بس الفيلم ما جابش ريحة الملح اللي كانت على هدومه.

والتاني بقى ده حكاية اسمه سلامة سلبو. آه على اسمه، على اسمي. بس ده سلامة تاني خالص. كانوا يقولوا عليه بتاع اللبان والفراهدة، رفيع زي عود القصب وعينه زي الصقر. سموه سلبو عشان كان بيسلب السكينة من إيد أي عيل صايع قبل ما يفكر يرفعها.

سلامة ما كانش فتوة خناقات، كان قاضي الحارة ومصلحها. في عز أيام الإنجليز وأيام ريا وسكينة، لما كانوا بيخطفوا العيال من الشوارع، دخل مرة نقطة بوليس اللبان برجله. ضابط إنجليزي كان حابس واد مصري غلبان. سلامة حط شاله على بُقه، بص للضابط، وما طلعش

غير والواد في إيده. ما كانش بيتكلم كتير، كان يمشي والحارة كلها تمشي وراه.

والتالت أبو خطوة. ده حكاية لوحده خساره انه متعملهوش فيلم بإسمه. محمد أبو خطوة، اتولد في المنشية سنة 1870 نفس السنه اللى اتولد فيها خالى الساعاتى ما هو خالى كان صحبه وهوا اللى قالى ، وبعدين ده من الأشراف، حفيد الحسين. راجل طويل، رجله مقاس 46، كانوا بيقولوا خطوته تجيب أول الشارع لآخره في تلات خطوات. كان مصارع في شبابه، وبعدين ساب الحلبة وبقى فتوة المنشية وسوق الخضار اللى هو الميدان.

كان بيكره الإنجليز نار. مرة الحكمدار الإنجليزي عايز يعدي بعربيته قدامه على الكورنيش، أبو خطوة وقف عربيته، نزل، شال عربية الحكمدار بإيده وهي باللي فيها، حطها على جنب، وقال له "عدي ورايا". ومرة تانية شاف كونستابل إنجليزي بيضرب بياع ترمس غلبان، ما استناش، مسكه من قفاه وخلّى البياع يلم حاجته ويمشي.

لو عيل سرق طماطماية في السوق، ما كانش يضربه، كان يوقفه جنب القفص ويقوله "كُل لحد ما تشبع"،

وبعدين يقوله:

_"روح اشتغل".

في رمضـــان ســـنـة 35 تقريبـاً، أنـا كنـت بشـــتغـل مع أبويـا في بورصـــة القطن أيـام بـالنهـار، وبـالليـل مع حبيبى الخواجـه كوســـتـا وســـاعـات كنـت بنزل معـاه بـالنهـار برضـــه . الإنـجـلـيـز كـانـوا مـالـيـين الـبـلـد، ومـعـاهـم عســـاكر ســـكـارى. بنـت المعلم فرج بتـاع الـفـول، صـــبـاح، كـانـت راجـعـة مـن عـنـد خـالـتـهـا في الأنفوشـــي. عســـكريين زنقوهـا جنب سور الجمرك.

الـواد بـيـاع الـجـرايـد جـري عـلـى حـمـيـدو. حميـدو كـان قـاعـد على القمـة ســـمع الكلمـة وعـرف مـن الـواد، قـام مـن غـيـر مـا يـكـمـل الـواد الـكـلـمـة، الـخـاتـم الـنـحـاس لـمـع. ودخـل مع العســـاكر فى العركـة في نفس الـدقيقـة

سلامة سلبو بالصدفه كان معزوم ومعدى شاف اللمة، حط شاله على بُقه. وأبو خطوة سمع الهيصة من سوق السمك، جه بخطوته اللي تهز الأرض.

أنا كنت واقف ورا البرميل، قلبي بيدق زي الطبلة. التلاتة ما اتكلموش مع بعض، بس عينيهم اتقابلت. حميدو قال للعسكري بالإنجليزي المكسر: "دي بنت حارتنا". العسكري ضحك ومد إيده. قبل ما يلمسها، سلامة كان سلب المسدس من جنبه ورماه في بركة مية. أبو خطوة مد رجله، خطوة واحدة بس، بقى بين البنت والعساكر زي الحيطة.

الخناقة ما طولتش. مش عشان الفتوات

كانوا أقوى، لأ. عشان أهل بحري كلهم طلعوا من الشبابيك، ستات بتزغرد ورجالة ماسكة عصيان. العساكر حسوا إنهم لوحدهم وسط بحر، سابوا البنت وجريوا.

بعدها بساعة، التلاتة قعدوا على سور البحر . حميدو قال: "إحنا مش بنتخانق على مين كبير الحتة". سلامة هز راسه: "الكبير هو اللي يوطي عشان العيل الصغير يعدي". أبو خطوة قال: "أنا خطوتي كبيرة، بس عمري ما عديت على حق حد".

أنا وقتها عندي 17 سنة وكنت متجوز ، بس اتعلمت درس عمري ما نسيته.

حميدو مات في 36، قالوا غطس يجيب شبكة صياد غلبان من مركب غرقان وما طلعش. مات زي ما عاش، إيده سابقة لسانه.

سلامة سلبو كبر وعجز، آخر مرة شفته كان قاعد على عتبة بيته في الفراهدة ، بيبرم سبحته وبيقول للعيال الصغيرة _"إوعى ترفع إيدك إلا عشان تسلم".

وأبو خطوة، يا ولاد، الرجل اللي كان بيشيل عربية بحالها، وقع في حفرة في السوق وهو بيجري ورا حرامي، رجله الطويلة خانته. من ساعتها بقى يقعد على اول سوق الميدان على الرصيف ويقول

_"الخطوة الكبيرة عايزة أرض ثابتة".

ومات سنة 41، وهو لسه بيطبطب على الغلابة.

أنا بقى، سلامة بتاع بحري، لا بقيت فتوة ولا حاجة. بس كل ما أعدي من السيالة وأشم ريحة السمك، أو اللبان وأسمع خبط النحاس، بحس إن التلاتة ماشيين جنبي. مش بأجسامهم، بصوتهم.

عشان كده بقول لكم، لما حد يقول لكم الفتوات كانوا بلطجية، قولوا له لا. دول كانوا السور اللي البحر ما عرفش يهده. حميدو اللي رفض فلوس الخديوي، وسلامة اللي كان قاضي من غير محكمة، وأبو خطوة اللي شال عربية الإنجليز

بـإيـده. ولمـا السـور وقع، البحر دخـل علينـا بحاجات تانية.

صـبولي شـاي.. وسـيبوه يبرد شـويـة، عشـان الحكـايـة دي سـخنـة، ومش عـايزهـا تلسع لسانكم.

https://larewaia.blogspot.com/?m=1

الفصل الثامن

الجد سلامة :

-تعالوا يا ولاد، المرة دي مش هحكي عن فتوة ولا عن مركب غرقانة. هحكي عن ناس عمرهم ما شالوا سكينة، كانوا شايلين قلم. ناس اسكندرية نسيتهم، بس البحر لسه فاكرهم.

أنا سلامة الرجل العجوز مولود 1918 في بحري، كنت بمشي جنب الكورنيش وأبويا يقولي هنا كانت المكتبة. أقول له فين الكتب يا با؟ يقولي البحر خدها، بس اللي اتكتب فيها فضل عايم.

أبويا كان دايما يحكيلى عن العظماء والنهاردة هحكيلوا الحكاية اللى حكهالى بنفس الترتيبه اللى قالها وهنبدأ

بأول واحد زى حكى ليا لازم تعرفوه هو الخواجة إقليدس. ده مش اسكندراني مولود هنا، بس بطليموس الأول جابه وقاله تعالى علّم العيال. فتح مدرسة في الموسيون أيام بطليموس الأول اللي حكم من 323 لحد 283 قبل الميلاد، وكتب كتاب اسمه العناصر بين السنين دي. الكتاب ده يا ولاد علّم الدنيا يعني إيه خط مستقيم ويعني إيه برهان. لحد النهاردة المهندس اللي بيبني عمارة في سموحة بيستخدم نفس القواعد اللي إقليدس كتبها. والتلميذ اللي قعد تحت رجله واتعلم منه كان أرشميدس نفسه.

بعد إقليدس بسنين، جه واحد اسمه

إراتوستينس. ده كان يوناني بس اسكندرية بلعته وبقى تالت أمين مكتبة. الراجل ده في سنة 240 قبل الميلاد، خد عصاية ووقفها في اسكندرية، وبعت واحد صاحبه لأسوان يشوف الضل في بير هناك. حسب الفرق بين الضلين، قال الأرض مدورة وحسب حسبته . طلع حسابه قريب من الصح بالمللي. وهو اللي اخترع كلمة جغرافيا، وقعد على كرسي المكتبة يكتب.

وبعدين جه بطليموس، مش الملك أبو تاج، لا ده كلوديوس بطليموس العالم. عاش من سنة 90 لحد 168 ميلادية، ومات هنا في اسكندرية. كتب تلات كتب

يهدوا الدنيا، المجسطي عن النجوم، والجغرافيا اللي رسم فيها 8 آلاف مدينة، وكتاب رابع عن التنجيم. الناس مشيت ورا كلامه ألف سنة، صح ولا غلط، بس هو اللي علّمنا نبص للسما ونكتبها على ورق.

وكان فيه بنت البلد دي، هيباتيا. بنت ثيون السكندري، اللي هو نفسه كان بيصحح كتاب إقليدس بإيده. هيباتيا اتولدت حوالي سنة 350 أو 370، وكبرت تدرّس رياضة وفلسفة في نفس الشوارع اللي إحنا بنمشي فيها. كانت بتلبس عباية الفلاسفة وتمشي تدي دروس في الميدان، مسيحي ووثني كانوا

يقعدوا يسمعوها. وفي مارس سنة 415، ناس متعصبة قتلوها في الشارع. موتها كان زي ما تطفي نور المكتبة بإيدك.

أنا بقى، لما دخلت مدرسة الصنايع سنة 31 مدرسة محمد على اللى فى الشاطبى اللى اتبنت 1904 ما أنا متعلم وكنت بشتغل وانا بتعلم وكنت واد كسيب، كان الأستاذ بتاعنا يقولنا يا ابني احفظ نظرية إقليدس. أقول له يا أستاذ ده مات من ألفين سنة، يقولي ومالـه، ما هو ساكن معانا في الفصل. ولما كبرت واشتغلت فترة في المينا، كنت بشوف المراكب داخلة ببوصلة، أفتكر بطليموس اللي رسم أول خريطة.

وفاكر كويس يوم ما الراديو قال سنة 1999 إن واحد مصري خد نوبل في الكيميا. أحمد زويل، مولود سنة 1946، اتربى ودرس في جامعة اسكندرية قبل ما يسافر أمريكا. الراجل ده صوّر الثانية وهي بتجري، عمل كاميرا تصور حركة الجزيء في الفيمتو ثانية. أنا ساعتها كنت قاعد على نفس القهوة اللي كنت بسمع فيها عن هيباتيا، وقلت للواد الصبي:

_شايف يا ابني؟ اسكندرية ما بتموتش، هي بس بتغير هدومها.

من إقليدس اللي كتب بالمسطرة، لإراتوستينس اللي قاس الأرض بعصاية،

لبطليموس اللي رسم السما، لهيباتيا اللي دفعت حياتها عشان تفضل تعلّم، لثيون أبوها اللي فضل يصحح الكتب بإيده، لزويل اللي شاف اللي محدش شافه.. كلهم ولاد نفس البحر.

عشان كده لما حد يسألني إحنا مين يا جدي، أقوله إحنا مش بتوع سمك وبس. إحنا بتوع قلم كان بيكتب والدنيا كلها كانت لسه بتتعلم تقرا. والبحر اللي خد المكتبة، معرفش ياخد الفكرة.

صبولي شاي.. وتعالوا نفتح كتاب الحساب بتاع حفيدي، عايز أوريكم إقليدس كان بيقول إيه على الخط المستقيم، عشان تعرفوا إن السكة من

بحري لكوم الدكة، عمرها ما كانت غير خط واحد، إحنا اللي بنلف حواليه.

الفصل التاسع

الجد سلامة :

_تعالوا يا ولاد، البسوا الشباشب وتعالوا نمشي. مش هنروح بعيد، هنلف في بحري بس. ومفيش بلاطة في بحري ما دوستش عليها وأنا رايح أصلي الفجر والهوا لسه مالح.

الناس زمان سمّت الحتة بتاعة أبو العباس "ميدان المساجد". مش عشان جامع واحد، لا. عشان ربنا لمّ أولياءه جنب بعض زي ما بيلم السمك في الشبكة. الملك فؤاد لما جه يعمل الميدان، قال نضم جامع كبير لأبو العباس المرسي، وجامع للإمام البوصيري، وجامع للشيخ ياقوت العرش. التلاتة دول القلب، والناس زودت

عليهم الجوامع الصغيرة وبقوا يقولوا السبع مشايخ.

أولهم سيدي أبو العباس المرسي. قبره فضل على المينا من غير سقف لحد سنة 706 هجرية، 1307 ميلادية، لما جه الشيخ زين الدين القطان كبير تجار اسكندرية، بنى عليه قبة وضريح ومنارة مربعة. وبعدين الملك فؤاد هد القديم وبناه من جديد على إيد مهندس طلياني اسمه ماريو روسي، وخلص سنة 1943. أنا حضرت الافتتاح وأنا شاب، واقف والبحر بيضرب في السور، والمرسي كأنه بيقول:

"أنا لسه هنا يا ولاد".

والطلياني اللي بناه، روسي، أسلم بعدها بسنتين وأشهر إسلامه في نفس الجامع اللي عمله.

أبويا أول مرة دخلني كان ماسك إيدي وقالي:

_"بوس العتبة دي يا سلامة.. دي عتبة اللي شال هم الغرقانين".

ومن يومها كل ما أضيق أروح أبوسها.

جنبه الإمام البوصيري، صاحب "مولاي صل وسلم". الراجل حب النبي لدرجة كتب القصيدة وهو عيان، وربنا شفاه. الناس بتيجي تاخد بركة الكلمة الحلوة، مش بركة الحجر.

والتالت ياقوت العرش. ده حبشي جه

اســـكنـدريـة يـدور على رزق، المركـب غرقـت ونجـا، اتصـــوف وتتلمـذ على إيـد أبو العبـاس واتجوز بنتـه. مـات ليلـة 18 جمـادى الآخرة ســـنـة 732 هـجـريـة وعـنـده 80 ســـنـة، وانـدفن جنـب شـــيخـه. كـان بيقول: _"العلم من غير أدب زي مركب من غير ريس".

تمشـــي بينهم في الفجر تســـمع الاذان بيـأذن فـي أبـو الـعـبـاس: "الله أكـبـر"، يـرد عـلـيـه الـبوصـــيري، يرد عـلـيـه يـاقوت. تـحس إن الـحـارة كـلـهـا بـتصـــلـي فـي نـفـس واحـد، وريـحـة الـبخور طـالـعـة عـلى ريـحـة الـبـحـر واليود، كـأنـهم تلاتـة صـــحـاب قـاعـدين على الراكية بيندهوا على بعض.

إحنا مش بنصلي في طوب، إحنا بنصلي في تاريخ.

بس بحري مش أقدم حتة فيها جوامع. لو عايزين الأقدم، لازم نطلع من بحري ونروح العطارين بعد الضهر، والشمس بتفرش على الحجر.

جامع العطارين حكاية لوحده. أصله ما كانش جامع، كان كنيسة للقديس أثناسيوس مبنية سنة 370 ميلادية. بعد الفتح اتحول لجامع صغير، وبعدين جه أمير الجيوش بدر الدين الجمالي سنة 477 هجرية، 1084 ميلادية، هدّه وبناه من جديد ووسعه، عشان كده بيسموه الجامع الجيوشي. أنا دخلته في الستينات،

لقيت حجر مكتوب عليه اسم بدر الجمالي، قلت في سري: الراجل ده مات من ألف سنة وسايب اسمه على الحيطة.

وعندنا جامع النبي دانيال في شارعه. اتبنى سنة 1790، أيام ما اسكندرية كانت حيين بس، راس التين والجمرك، والباقي رملة. متسمي على الشيخ محمد دانيال الموصلي، جه من الموصل آخر القرن التامن الهجري، قعد يدرّس الفقه الشافعي لحد ما مات سنة 810 هجرية واندفن هناك. الناس بتقول تحته ضريح النبي دانيال بتاع العهد القديم، الله أعلم، أنا بقول اللي سمعته.

وفيه سيدي بشر. ده جه من المغرب

والأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري، راجل صالح زاهد، مات سنة 528 هجرية واندفن مطرح ما كان عايش على البحر. كل صيف كنت باخد ستك الله يرحمها هناك، نشم اليود ونسمع الأذان مع الموج.

اسكندرية كلها أولياء، يقولوا فيها حوالي 400 ضريح. في ميدان المساجد لوحده، اللي بيسموه "بقيع اسكندرية الجديد"، متجمع 33 ضريح، ومعاهم حوالي 15 ضريح منقولين من أماكن مندثرة زي سيدي جابر والشاطبي. وفيه أضرحة تانية مدفونة في حواري ضيقة يعرفها بس أهل المنطقة.

وانتوا عارفين الحكاية اللي بيحكوها الصيادين؟ يقولوا في أضرحة جوا الميه، زي أحمد العجمي اللي العجمي اتسمت على اسمه، وأحمد الرحال في المعمورة. أنا ما شفتش، بس بسمعها منهم،

ولازم تفرقوا يا ولاد، في فرق بين الضريح اللي فيه الجثمان فعلا، والمقام اللي معمول تذكار بس.

أقدم مقام تذكاري عندنا هو بتاع سيدي أبو الدرداء في اللبان

على فكرة مسمهوش أبو الدوردار مفهوم. اسمه الحقيقى عويمر بن عامر، النبي سماه حكيم الأمة. عمر بن الخطاب بعته اسكندرية يعلم الناس مع عمرو بن

العاص. بس هو مات واندفن في دمشق سنة 32 هجرية، يعني اللي عندنا مقام مش ضريح.

أهل اللبان عندهم حكايات عليه. يقولوا في الحرب العالمية التانية القنابل نزلت حوالين اللبان كله إلا الحتة دي. ويقولوا لما جم يمدوا الترام زمان، عامل مد إيده يهد المقام اتشلت، فعدلوا القضبان وخلّوها تلف حواليه. أنا شفت اللفة دي بعيني، الترام بيلف كأنه بيحترم الراجل. بقول "يقولوا" عشان دي حكاية ناس، مش ورق حكومة.

فاكرين لما قلت لكم إحنا مش بنصلي في طوب، إحنا بنصلي في تاريخ.

أنا لما بمشي في ميدان المساجد دلوقتي، بشوف أبو العباس واقف يبص على المينا، والبوصيري بيكتب، وياقوت بيبتسم. التلاتة ماتوا من سبعمية سنة، بس لسه بيجمعونا. والمرسي كان يقول: _"اللي يزورني في الشدة، أزوره في الغرقة".

عشان كده بقول لكم، لما الدنيا تضيق بيكم، انزلوا بحري الفجر، لفوا على التلاتة، صلوا ركعتين في كل جامع، وبعد العصر عدّوا على أبو الدرداء في اللبان، واطلعوا على البحر. هتلاقوا نفسكم خفاف، كأن حد شال من على كتافكم سبع طوبات.

الفصل العاشر

الجد سلامة :

_النهارده يا ولاد هحكي حكاية سمعتها من أبويا الله يرحمه، حكاها لي كتير لحد ما حفظتها. هحكيها زي ما هو قالها، بكل تفاصيلها.

أنا إبراهيم المراكبي، سنة 1882 كان عندي 17 سنة وشنب لسه طالع. بشتغل على مركب في المينا الشرقية. في يوم كنت لابس بدلة وطربوش وجزمة التراب ملطخها، قلت أروح ألمعها وأنا قاعد على قهوة القزاز في المنشية.

أمي ماتت بالكوليرا قبليها بسنة، وأبويا كان يقول لي "الصنعة أمان يا هيما". وكنت بحب زينب بنت عم محمد الفكهاني،

اللي كانت بتعدي كل يوم بشال أزرق رايحة تجيب عيش.

إسكندرية ساعتها ما كانتش مدينة واحدة، كانت سوق كبير للدنيا. يوناني فاتح فرن، طلياني بيبيع قماش، مالطي سايق حمار، وإنجليزي لابس بدلة بيضا وماشي كأنه صاحب البلد.

يوم 11 يونيو، الحر كان بياكل الأسفلت. أنا واقف بلمع الجزمة وجنبي خواجة إنجليزي، سمعت زعيق جنب الكارو. مكاري مالطي بيتخانق مع شيال مصري على قرشين أجرة حمار. المالطي ما استناش، طلع مطواة وغز الراجل في بطنه قدامي. الدم فرش على التراب.

في دقيقة الشارع اتحول. المصريين صرخوا "قتلوا ولدنا"، والمالطية واليونانيين جريوا على الحواري. شفت بعيني صاحبي يورجو اليوناني بيترمي بطوبة في دماغه وهو بيحاول يهدي. الحكومة قالت بعدها مات حوالي خمسين أوروبي وأكتر من 200 مصري في اليوم ده.

زينب كانت مستخبية ورا عربة الفول بتعيط، شديتها من إيدها وجرينا على بيتها قرب السيالة.

من تاني يوم، البحر اسود. 15 مركب حربي إنجليزي ركنت قصاد المينا بحديدها ومدافعها، بقيادة الأدميرال سيمور. كانوا

بيبصـــوا للطوابي كـأنـهم بيعـدوا كـام طلقـة هنحتاج.

عرابي بـاشـــا بعت عســـاكرنـا يرمموا طـابيـة القمريـة وطـابيـة السـلسـلـة. النـاس كـانـت بتـهتف "الله أكبر"، وأبويـا كـان بيحلق دقن عســـكـري وإيـده بـتـتـرعش ويـقـول "ربـنـا يستر، الإنجليز ما بيهزروش".

يـوم 10 يـولـيـو، وأنـا بـكـنـس الـدكـان، دخـل شـــيـخ الـحـارة بـورقـة مـترجـمـة. الإنـجـلـيـز بـيـقـولـوا: وقـفـوا الشـــغـل فـي الـقـلاع ونـزلـوا الـمـدافـع فـي 24 ســـاعـة، يـا هـنـضـــرب إسكندرية. أبويا بص لي وقال:

_"اقفـل الـدكـان يـا هيمـا".

قلت له :"يا با دي بلدنا".

قـال :"البلـد لمـا بتتضـــرب، أول حـاجـة بتقع هي الدكاكين".

زينـب جـت تجري بـالليـل، شـــالـهـا الأزرق متقطع، قالت :

_"أمي بتقول هنسافر رشيد".

مسكت إيدها وقلت لها :

_"مش هسيبك".

ضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

_"هتحارب إزاي؟"

نمـت وأنـا حـاطط المقص بتـاع أبويـا تحـت المخدة.

الفجر بتـاع 11 يوليو، قبـل الأذان، ســمعـت صـــفـارة طويلـة.. الـدنيـا ســكتـت ثـانيـة..

وبعدين السما اتشقت. أول دانة وقعت على طابية الفنار، وهزت بيتنا. الجير وقع على وشي.

القصف فضل شغال بين 11 و13 يوليو. عشر ساعات ونص من غير رحمة. مش ضرب جيش لجيش، ده كان مطر نار.

جريت على السلم، لقيت أبويا بيحاول يفتح الدكان عشان يجيب الفلوس اللي في علبة صفيح. صرخت "سيبها يا با". دانة تانية نزلت على قهوة القزاز، الإزاز طار في وشي. شفت يورجو مرمي على الأرض، رجله مقطوعة، بيقول بالعربي المكسر "إبراهيم، مية". اديته بُق من

القلة، مات وهو ماسك إيدي. ريحة البارود مسكت في هدومي شهر.

النار كانت بتاكل المنشية صف. دكان العطارة، فرن الخواجة ديمتري، حتى الجامع الصغير. الريحة كانت بارود وخشب محروق وسمك ميت.

جريت أدور على زينب في الدخان. لقيت بيت عم محمد واقع نصه. صرخت لحد ما صوتي راح. طلعت من تحت سلم خشب، وشها تراب، شايلة أخوها الصغير اللي عنده 3 سنين مغمى عليه من الخضة. حضنتها وأنا بعيط زي العيال. قالت كلمة واحدة :

_"خدني من هنا".

خدتها أنا وأبويا وجرينا على كوم الشقافة، استخبينا بين الشواهد. من فوق كنا شايفين المدينة بتولع. كل شوية دانة تنور السما أحمر.

الإنجليز خسروا 6 عساكر بس، إحنا اتدفنا 680 لحد 700 واحد في يومين. كنا بنعد الجث بالجلاليب، مش بالأسامي.

يوم 13 العصر، السكوت كان أوحش من الضرب. طلعنا لقينا إسكندرية تانية. المنشية مفيهاش حيط واقف. دكان أبويا بقى كوم طوب. المقص اللي كنت مخبيه هو الحاجة الوحيدة اللي لقيتها سليمة وسط الرماد.

وبعدها نزلوا. العساكر الإنجليز بلبسهم الأزرق نزلوا من المراكب ومشيوا في شارع فرنسا كأنهم في عرض. الناس كانت بتتفرج من الشبابيك وهي ساكتة.

أبويا مات بعدها بأيام، مش من جرح، من القهرة. كان كل يوم يقعد قدام الدكان المهدود ويحلق الهوا بالمقص . مطولش وبعدها فعلاً مات

يوم دفنته في كوم الشقافة، في نفس الحتة اللي استخبينا فيها، المقص وقع من جيبي على الشاهد. وطيت أجيبه، افتكرت إيد يورجو وهي ماسكة إيدي. قبل ما يموت، افتكرت يورجو انه كان حاشر في جيبى حاجة معدن صغيرة. افتكرتها زلطة.

روحت وفتشت جيبى وانا بالبيت. ما كانتش زلطة. كان مفتاح نحاس صغير، محفور عليه حرفين: ق. قهوة القزاز.

زينب لسه ما كانتش سافرت. خدتها بالليل، والمقص في جيبي والمفتاح في إيدي، ونزلنا على المنشية. القهوة كانت كوم طوب محروق. شلت طوبة ورا طوبة لحد ما لقيت باب خشب صغير تحت الأرض، باب المخزن اللي يورجو كان بيخبي فيه سكر ودقيق.

المفتاح لف. الباب فتح بصوت زي الصفارة.

جوة في الضلمة، كان فيه 11 عيل. مصريين على يونانيين على مالطي

صـــغير. يورجو كـان لاممهم قبـل الضـــرب بيـومـيـن لـمـا حـس إن الـبـحـر اســـود. كـان ســـايـب لهم قلـة ميـة وكســـرة عيش وورقـة مكتوبة بخطه المكسر:

_"لـو مـت، ادوا الـمـفـتـاح لإبـراهـيـم. هـو الوحيد اللي سقاني".

أول مـا شـــافوا النـور، الصـــغير الـمـالـطي صـــرخ. الصـــرخـة طلعـت من المخزن وعـدت في الشـــارع الفـاضـــي، وردت عليها صـــفـارة تـانيـة من البحر. مش دانـة. بـابور إنجليزي داخل المينا بعد ما خلص الضرب.

زينب بصت لي والمفتاح في إيدها وقالت:

_"أهو البحر رجع يزمر".

قلت لها :

_"لا. المرة دي إحنا اللي فتحنا الباب".

شلت العيال واحد على كتفي. الناس اللي كانت بتتفرج ساكتة، نزلت تجري. ستات شالوا العيال، ورجالة شالوا الباب الخشب وعملوه نقالة.

في نفس الليلة، خدت المقص، وحفرت بيه على ضهر المفتاح كلمة واحدة: نعيش.

زينب وأهلها سافروا رشيد بعدها بإسبوع. ما اتجوزتش. وأنا فضلت.

عارف الدراما فين يا ولدي؟ مش في الضرب. الدراما إننا بعد ما دفنا موتانا،

فتحنا دكاكيننا تاني تحت علمهم، وإن البحر اللي كنا بنغني له "يا بحر يا غدار"، بقى هو اللي بيحرسهم. وإن جيلي كله كبر وضهره للبحر، خايف يبص له ليرجع يضرب تاني.

الأمير عمر طوسون كتب بعدها بسنين كتابه "يوم 11 يوليو سنة 1882" عشان يوثق. أنا مش محتاج توثيق. أنا لسه بسمع صفارة أول دانة كل ما بابور البحر يزمر، بس دلوقتي لما بسمعها،بفتح ايدى ألاقى المقص والمفتاح. واحد علمنى أقص القهر، والتانى علمنى أفتح باب تحت الرماد

الفصل الحادي عشر

الجد سلامة باصص للبحر من بعيد، قال: مالكو يا ولاد؟ لسه آخر حكاية مأثرة فيكوا؟ طب النهاردة هكمّلهالكو.

بعد ما أبويا دفن أبوه، وقف على الرصيف لوحده. المقص في جيبه. المفتاح النحاس في إيده. والقلب فاضي.

أبويا كان بيحكيها ودمعته بتنزل على دقنه، كأنها حصلت امبارح.

زينب سافرت رشيد مع أمها وأخوها الصغير. بعد شهر، جواب واحد وصل. ورقة من كراسة، الحبر سايح على أول كلمة:

_"يا هيما، البيت هنا طين ونخل. البحر هنا هادي، مش بيضرب زي بتاعكم.

أمي بتقول ابن الباشـــا جاي يتقدم. راجل متعلم وبيته حيطان. بتقولي انســـى اللي راح.

بس أنا كل ما أغســـل في النيل، بشـــوف وشك في المية.

لو جيت، هتلاقيني مستنية؟ زينب"

الجواب اتأخر. لما وصـــل إســـكندرية، كانت كتبت كتابها خلاص.

ســـنة 1884، بعد الضـــرب بســـنتين، حوشـــت قرشـــين من شـــغل المراكب. لبســـت البدلة اللـــي لســـه فيها خرم الإزاز، وحطيت المقص والمفتاح في جيبي، وركبت مركب رايح رشيد.

رشـــيـد مش إســـكنـدريـة. مفيهـاش دانـات. فيهـا نخـل عـالي، ونيـل بيجري على مهلـه. الريحة ياسمين، مش بارود.

وصـــلـت بيـت عم محمـد. بـابـه أخضـــر، متضـــفر بورق نخـل نـاشـــف بيخروش مع الهوا.

خبطـت. اللي فتحـت مـاكـانتش زينـب، كـانـت أمها.

بصـــت لي، وعرفتني من أول نظرة. وشـــهـا اتشد لحظة، وبعدين قالت:

_"إبراهيم؟"

من ورا كتفهـا شُـــفتهـا. زينـب كـانـت قـاعـدة جوه بـالصـــدفـة، بتزور أمهـا. نفس الشـــال

الأزرق، بس الشمس بهتته خالص. وبطنها قدامها. حامل.

بصت لي. بصيت لها. مفيش كلام اتقال، كل الكلام كنا قلناه سنة 82 وإحنا بنجري من تحت النار.

أمها دخلتني وقعدتنا. زينب همست وهي بتبص في الأرض:

_"اتأخرت يا هيما."

قلت: "والسكة كانت كلها رماد."

وإحنا قاعدين، أمها ساكتة، وأنا ساكت، وزينب إيدها على بطنها، الباب اتفتح ودخل جوزها، ابن الباشا. لابس جلابية

نضـــــيـــفـــة وطـربـــوش، ووشـــــه طـيـــب ومستغرب.

وقف وبص لي:

_"ده مين؟"

أمها ردت بسرعة:

_"ده إبـراهـيـم... بـتـاع إســـكـنـدريـة. بـتـاع حكاية السلم من سنتين."

مـا هو طبعـاً زينـب كـانـت حـاكيـالـه. الراجـل بص لي وابتسم، ومد إيده يسلم:

_"آه... إنـت إبـراهيم اللـي طلّعهـا من تحـت السلم يوم الضرب؟ سمعت عنك كتير."

ودخـل جـاب صـــينيـة شـــاي بـالنعنـاع بـإيـده. قـعـدنـا. هـو بـيـحـكـي عـن الأرض والـقـطـن،

وأنا ساكت. زينب هي اللي صبت الشاي، إيدها بتترعش. كل ما الكوباية تعدي من إيدها لإيدي، صوابعنا تلمس بعض ثانية.. قديمة وبتحرق.

وأنا ماشي، وقفني على الباب. حط في كفي كيس قماش تقيل

_ "خد دول. خمسة جنيه دهب. هات بيهم مركب في بحري. الراجل الجدع لازم يبقى له باب."

بصيت لزينب آخر مرة. كانت بتبص في الأرض. ابنها اتحرك في بطنها.

مشيت من غير ما أبص ورايا.

في نص النيل وأنا راجع، فتحت الكيس. الدهب بيلمع. طلعت المفتاح النحاس من

جيبي. كان دافي من حرارة إيدي. وقفت على حرف المركب، فتحت صوابعي. سمعت "تشش" صغيرة، وبعدين دواير مية وسعت.. وسعت.. وبعدين سكتت.

المفتاح غرق. كلمة "نعيش" اللي كنت حافرها فيه، فضلت محفورة في لحم كفي.

رجعت اشتريت مركب في بحري.

وبقيت كل سنة، أول ما النخل يطرح في رشيد، أستنى مركب جاي من هناك. ينزل قفص بلح أحمر، من غير ورقة، من غير اسم. أعرف إنه منها.

سنة 1901 المركب مجاش.

بعدها بكم يوم، امها بعتت لي مراكبي. في إيده شال أزرق بهتان، ملفوف فيه خصلة

شـــعر صـــغيرة. وجواب بخطهـا، المرة دي الحبر ناشف:

_"لإبراهيم.. اللي مستنى."

قـالـت لـي زينـب مـاتـت وهـي بتولـد بنتـهـا التانية بعد سنيين. سموها زينب.

مـن يـومـهـا وأنـا فـاهـم. الـحـب مـش الـلـي تتجوزه. الحب اللي تفضـــل شـــايـل شـــالـه حتى لو الشمس بهدلته.

والمقص؟ لســـه في جيبي. كـل مـا أقص بيـه قمـاشـــة، بفتكر إيـدهـا وهي بترعش على كوبـايـة الشـــاي. وكـل مـا البحر يزمر في بحري، بقول في ســـري: نعيش يـا زينـب.. نعيش.

الفصل الثاني عشر

الجد سلامة ساحب نفس وباصص للبحر وبعدين بص لنا:

_تعالوا يا ولاد، اقفلوا التلفزيون وتعالوا اسمعوا. اسكندرية مش خريطة على الحيطة، اسكندرية أحياء وحواري. وكل حارة ليها ريحة، وليها صوت، وليها ناسها. أنا جدكم سلامة، ومفيش حارة ما مشتش على رصيفها وأنا صغير.

بصوا يا ولاد.. كفاية حكايات الوجع. أبويا خد وجعه ونزل بيه القبر. وأنا خدت وجعه وورثته. وانتو مش لازم تورثوا الوجع. لازم تورثوا الحارة.

النهاردة هحكيلكوا حكاية مافيهاش جوابات متأخرة ولا شال أزرق بهتان.

حكاية فيها ريحة. هحكيلكوا عن حواري وأحياء اسكندرية الجميلة اللي فيها ريحة الطيبة والجدعنة.

أول حاجة مش هنروح بعيد، خلينا حوالينا. بحري دي مش حي، دي أم. قاعدة في قلب الجمرك طول عمرها نقطة الصيادين والمراكب واللي جاي من بره. أنا اتعلمت العوم هنا، واتعلمت أشتم باليوناني هنا، واتعلمت أصلي الفجر هنا.

إسكندرية هي السيالة لما المراكب ترجع شايلة السردين بيلمع زي الفضة، والستات واقفين بالملايات اللف مستنيين رزق عيالهم، وصوتهم بيخبط في بعضه: "يا رزاق يا كريم". السيالة يعني الشبكة.

ريحة اليود داخلة في الحيطة. كنت أقعد مع عم حسن السيال وهو بيصلح الشبكة، يقولي:

_ "البحر زي الست، لو ما فهمتهاش تزعلك". السيالة علمتني الصبر.

وفي بحري برضه، فيه حارة اليهود اللي كانت ضيقة لدرجة إنك لو فردت دراعك تلمس الحيطة يمين وشمال، بس كانت واسعة لدرجة إن الجار المسلم كان بيسيب مفتاح بيته عند الجار النصراني وهو نازل يصلي الجمعة. وبعدها بشوية زنقة الستات، اللي الراجل الجدع كان يمشي فيها مكسوف، ريحة البخور على ريحة الكمون، ودهب متعلق في الفترينات

بيبرق، وعيّل صغير بيجري بصينية شاي عليها خمس كوبايات ومش مدلوق منها نقطة.

جوه بحري فيه الأنفوشي. دي أقدم حتة في اسكندرية كلها، قاعدة على لسان فاروس القديم. فيها جامع أبو العباس، وفيها قلعة قايتباي اللي بتحضن البحر. الناس الكبيرة كانوا بيقولوا اسمها جاي من خواجة طلياني اسمه أوغستو أنفوسي، كان بيعلم المدفعية لمحمد علي. أنا كنت بقعد عند صياد سمك هناك، والعيال كانوا ينطوا من على الصخر، والبحر ياخدهم ويرجعهم
تتمشى شوية على البحر لغاية محطة

الرمل وتعدي صفية زغلول تلاقي رجلك وديتك على كوم الدكة. الناس فاكراها حارة غلابة، بس هي في الأصل كانت عالية زي الدكة، عشان كده سموها كوم الدكة. فيها المسرح الروماني الوحيد اللي لسه واقف في مصر. كوم الدكة دي اللي خلفت سيد درويش، اللى كل ما بسمع صوته قلبى بيدق مش عارف ليه.

الحواري كانت بتعرف الوجع قبل الدكتور. كنت تطلع سلالم كوم الدكة وانت بتنهج، تلاقي واحد قاعد بعوده بيغني لسيد درويش، والعيال بيلعبوا كورة شراب، والكورة كل شوية تقع في بلكونة أم

إبراهيم، فتطلع تشتمهم وبعدين تحدف لهم قرصة بعجوة.

تنزل تحت شوية تلاقي العطارين. الحي واخد اسمه من جامع العطارين، عشان كده ريحة البخور فيه مختلفة. العطارين كان سوق الأنتيكات والخواجات، كنت أمشي فيه أتفرج على الساعات القديمة أشتري ساعة وأقول يا ترى مين كان لابسها قبلي.

ويا على شارع جنينه في اللبان اللى آخره ساحة بكير. اللبان كان حي التجار، مخازن القطن والبصل، وشارع علي بك الكبير اللي كان فيه بيت ريا وسكينة.

وكرموز يعني عمود السواري، وبيقولوا

إنها على اسم قس قبطي اسمه كارموس. الحواري الشعبية ليها طعم تانى هناك ، بس فيها العمود اللي واقف من أيام الرومان، بيقول للدنيا "أنا لسه هنا". كنت بروح هناك يوم الجمعة آكل فول من عربية عم سيد، وأمشي في شارع خوفو وباب الملوك.

وتطلع على محرم بك. كنا بنسميه حي الحلم. بيوت عالية وبلكونات حديد، كنا نعدي من قدامه وإحنا مروحين زمان نحلم بيوم نسكن فوق.

والحضرة اللي كانت بحيرة وردموها عشان القطر يعدي في عهد سعيد باشا.

لكن رأس التين تفضل ليها مكانة في قلبي

لأن ســـتكوا الله يرحمهـا من هنـاك . تحـت الســـور هنـاك القصـــر اللي بنـاه محمـد علي باشـــا وجاب لـه مهندســين طليـان. أنـا كنـت بقف علـى الســـور أتفرج علـى البحـر من وراه وأقـول الـقصـــر ده كـبـيـر، بـس الـبـحـر أكبر.

والـمـنشـــيـة. دي مـش حـارة، دي مـيـدان الـدنيـا. فيهـا المحـاكم والبورصـــة، وفيهـا تمثال محمد علي اللي بيشاور على البحر.

طيب اســـمعوا كمان، عشـــان اســـكندرية مش بتخلص عند المنشية.

ســـاعـات رجـلـي كـانـت تـاخـدنـي لـكـامـب شـــيزار، هتلاقي العيـال لســـه بيقولوا عليهـا "معســـكر القيصـــر". الرومـان . قـالوا لينـا

زمان إن يوليوس قيصر نزل هنا بجنوده، واحنا كنا بننزل هناك نشتري فلافل سخنة من عم عبده. جنبها الشاطبي، ودي مش شط وخلاص، دي على اسم سيدي محمد الشاطبي اللي جاي من الأندلس ودفن هنا، وريحتها يود وكتب قديمة من مكتبة الجامعة.

تنزل على سوتر، اسمها يعني "المنقذ"، بطليموس الأول اللي أنقذ أهل رودس، واحنا كنا بننقذ بعض هناك بسندوتش كبدة من عربية واقفة قدام الجامعة اللى كان إسمها زمان جامعة فؤاد الأول. والأزاريطة؟ دي كلمة طلياني "لازاريتا"

يعني الرملة، كنا بنلعب هناك ونرجع برجلينا كلها رملة.

تاخد الترام وتطلع لفوق، هتلاقي حواري الخواجات اللي عملوا اسكندرية تانية. زيزينيا على اسم الكونت الإيطالي بتاع القطن، ولوران على اسم الخواجة بتاع السجاير، وجليم على اسم اليوناني جليمونوبولو اللي كان في المجلس البلدي، وباكوس سمسار يوناني، وجناكليس بتاع العنب . وكلهم كانوا ساكنين فيلل بجناين، واحنا كنا بنعدي نبص على الجناين من بره السور.

وسموحة؟ دي جديدة شوية، سنة 1924 جه يهودي عراقي اسمه يوسف سموحة،

نشّـــف بحيرة الحضـــرة وعمل حي. كنا بنقول عليها أرض الأحلام الجديدة، بعد محرم بك.

تعالى بقى للغرب، الحواري اللي بتشـــقى بجد. المكس، اســـمها من "المكوس" الضـــريبة اللي كانوا ياخدوها من تجار المغرب وهم داخلين، وريحتها ســـمك مملح وجاز مراكب. والدخيلة عشـــان دي كانت دخلة اســـكندرية القديمة. والورديان، فيها طابية أم كبيبة لو الزمن طال بيا أبقى أحكي لكم عليها، والانجليز كانوا بيقولوا عـلـى مـخـازنـهـا "وارد" بـقـت ورديـان. وجنبها القباري فيها جامع ســـيدي القباري.

ويا عيني على كوم الشقافة، سموها كده من كتر الشقف، الفخار المكسور اللي كانوا بيرموه، وتحت رجلك مقابر رومانية بتلف بيك الدنيا.

ونروح لشرق، عند سيدي جابر الشيخ الأندلسي، وسيدي بشر الصوفي، وكل واحد فيهم عمل مقام والناس عملت حي حواليه. وأبو قير على اسم راهب قبطي، هناك البحر بياخد لون تاني والسمك له طعم تاني.

الخلاصة يا ولاد

كل حارة وكل حي من دول كان بلد لوحده. بحري بتاعة السمك، والأنفوشي بتاعة الأولياء، والسيالة بتاعة الشبك، وكوم

الدكة بتاعة الفن، والعطارين بتاعة التاريخ، واللبان بتاعة الشقا، ومحرم بك بتاعة الحلم، وكرموز بتاعة العمود، ورأس التين بتاعة الملك، والمكس بتاعة اليود والمنشية بتاعة الناس كلها.

أبويا كان فاكر الحب مفتاح نحاس يترمي في النيل. أنا بقولكوا الحب كان طبلية في حارة سد، ولمبة جاز، وطبق بصارة بيتقسم على تلات بيوت.

أنا لفيت فيهم كلهم برجليا. ولما كبرت وعجزت، بقيت ألف فيهم بذاكرتي. عشان كده لما حد يسألني انت منين يا جدي، بقوله أنا مش من حارة واحدة، أنا من

اســـكنـدريـة كلهـا. وكـل حـارة فيـا ليهـا شـــبـاك ببص منه على البحر.

الفصل الثالث عشر

الجد سلامة بص للبحر من الشباك وبعدين بص لنا:

_تعالى يا ولا أنت وهو اقعدوا هنا جنب الشباك. شايفين البحر؟ البحر ده كان المراية بتاعة البشوات. كل باشا كان عايز يشوف وشه في الميه، فبنى قصر على الشط. حكيتلكوا من كام يوم عن حواري الغلابة، النهاردة هوريكوا بيت الباشا. بس أوعدكوا.. هنرجع للحواري تاني عشان هي الأصل.

حكاية النهارده حكاها ليا استاذ جامعة فى الآثار من فترة قريبة، بس أنا كان ليا ذكريات فى كل مكان هو قاله. هبدأ

الحكاية بطريقتى أنا مش زى ما هو حكاها.

أنا سلامة، اللي حضرت الملك فؤاد وهو معدي في عربية سودة، وحضرت الملك فاروق وهو بيصطاد بط في المنتزه. كنا احنا ولاد بحري بنقف نتفرج من ورا السور الحديد، والعسكري يزعق "وسع يا ولد".

عندنا أقدم قصر. قصر رأس التين. محمد علي باشا نفسه اللي بناه. بدأه في سنة 1834، وجاب مهندسين أجانب فرنساوية وطلاينة، وخلص مبانيه سنة 1845، وافتتحوه رسمي 1847. القصر ده شاف كل حاجة، شاف محمد علي وهو عجوز

بيتسند على الشباك، وشاف إسماعيل وهو بيدخل التليفون سنة 1879 وأول مكالمة كانت بين القصر والسراي، وشاف الإنجليز قاعدين فيه أيام توفيق ومخليين الباشا ضيف في قصره. أنا كنت بعدي من قدامه وأنا رايح المينا، أشوف الحرس واقف زي التماثيل وأشم ريحة الملح على الحجر، وأسمع صوت البوري بتاعهم، وأقول في سري الباشا نايم جوه، والبحر صاحي بره. البحر كان بيناديه كل ليلة يقوله:

_ "أنا اللي باقي".

نمشي شرق على البحر نطلع على المنتزه. ده الحكاية كلها. الخديوي عباس

حلمي التاني، آخر خديوي، كان بيتمشى على شط فاضي سنة 1892، عجبته الحتة، قال ابنوا لي هنا عشة صيد. بنى قصر السلاملك سنة 1892. كان عامله استراحة على الطراز النمساوي، له ولصاحبته المجرية اللي بقت مراته بعدين، جويدان هانم. القصر صغير وأنيق على البحر، كأنه بيت عريس.

وبعدين جه الملك فؤاد الأول، أبو فاروق، قال القصر ده صغير عليا. راح بنى جنبه قصر الحرملك الكبير سنة 1925، على إيد المهندس الطلياني فيروتشي والمهندس المصري حسن باشا العدوي، بطراز إيطالي ببرجين طوال بيبصوا على

المية زي عين مفتوحة على البحر. أنا كنت بروح هناك لجوز خالتى في جناين المنتزه وأنا صغير، هو كان جناينى بيشيل الورق الناشف ويسقي الياسمين اللي جاي من بره. وفى مرة شفت الملك فاروق نازل يصطاد يمام، وصوت البندقية بيكسر السكوت، والخدم شايلين الشماسي. كنا بنقول المنتزه مش بتاع الملك، المنتزه بتاع البحر، والملك ضيف.

وكان في جنينة المنتزه حاجة اسمها "المسرح الروماني" عمله فؤاد عشان الحفلات. بس احنا ولاد الحواري كنا بنلعب فيه استغماية بعد ما يمشوا. كنا بنقول السور العالي ده معمول عشان

يخبي الباشا من البحر، بس البحر كان بيسمع دبيب نملنا.

نرجع غرب على زيزينيا. على البحر فيه قصر الصفا. ده أصله مش ملكي خالص. بناه الخواجة استيفان زيزينيا، قنصل بلجيكا وتاجر القطن، وبعدين بقى فندق اسمه جلوريا ينام فيه الخواجات. وفي سنة 1927 اشتراه الأمير محمد علي، ابن الخديوي توفيق، وسماه الصفا على اسم جبل الصفا. أنا فاكر في التلاتينات كنت بعدي قدامه، أشوف الستات لابسين برانيط وقاعدين يشربوا شاي بالحليب، وصوت المعالق بتخبط في الفناجين، وبعدين بقوا أميرات لابسين حرير. القصر

ده علم الصـــنـايعيـة بتوعنـا ازاي الخواجـة بيحب يقعد ويشرب شايه.

امشـــي لجوه شـــويـة في زيزينيـا ، هتلاقي قصـــر تـاني لـونـه وردي فـاتـح. ده قصـــر المـجـوهـرات بـتـاع الأمـيـرة فـاطـمـة الـزهـراء بنـت الخـديوي إســـمـاعيـل. اللي بنتـه أمهـا زينـب هـانـم فـهـمي ســـنـة 1919 وكـمـلـتـه الـــبـــنـــت 1923، عـــلـــى طـــراز أوروبـــي ومســـــاحتـه 4185 متر. بـعـد الـثـورة خـدوه اســـــتـراحـة لـلـريـس، وبـعـديـن فـي 1986 فتحوه متحف. أنـا دخلتـه مرة، لقيـت شـــبكـة محـمـد علـي مرصـــعـة، قلـت في ســـري: _"البـاشـــا كـان لابس دهـب، وإحنـا لبســـنـا الصنعة".

كمل على البحر توصل جليم، هتلاقي قصر عزيزة فهمي. دي بنت علي باشا فهمي كبير مهندسين القصر الملكي، بنته 1905 على البحر، 15 ألف متر، واللي رسمه الطلياني جرانتوا وقت ما كانوا بيعملوا الكورنيش. الحكومة خدته 1960 وبقى بيت للكُتاب. كنت بعدي قدامه وأنا شايل الشمسية للباشا، أشوف الست عزيزة قاعدة بتشرب شاي، أقول :

_"دي بنت اللي علمنا نبني".

اطلع لفوق على سموحة، هتلاقي جنينة كبيرة وقصر أبيض. ده أنطونيادس. الخواجة اليوناني جون أنطونيادس اشتراه 1860، وجاب رسام فرنساوي

يعملـه على الطراز الفرنســـاوي بتـاع قصـــور فرســـاي. لـمـا مـات 1895، ابـنـه أنـطـونـي وهبـه للبلـديـة 1918. إحنـا كنـا بننط من فوق الســـور نســـرق جوافـة، وريحتهـا في هـدومنـا، والعســـكري يجري ورانـا وصـــوتـه يجيب آخر الجنينة هههههههههه.

وانزل على محرم بـك، في شـــارع منشـــا، هتلاقي فيلا البـارون منشـــا. بتـاع الخواجـة فـيـلـكـس دي مـنشـــا تـاجـر الـقـطـن، مـات 1943. مـش عـلـى الـبـحـر، بـس كـان بـيـطـل عـلـى جـنـيـنـتـه الـكـبـيـرة، والـخـواجـات كـانـوا بيعملوا فيـه حفلات واحنـا نســـمع المزيكـا من الشـــبـاك واحنـا مـروحـين.

البشـــوات دول يـا ولا مـاكـانوش ملايكـة. كـان

فيهم اللي بيحب البلد، وفيهم اللي بيحب نفسه. محمد علي بنى عشان يحكم، وعباس حلمي بنى عشان يهرب من القاهرة، وفؤاد بنى عشان يوري الإنجليز إنه ملك بجد، وفاروق كان بيحب الصيد والستات أكتر ما بيحب الحكم.

بس الحق يتقال، القصور دي علمت الصنايعية بتوعنا. النجار السكندري اتعلم يعمل شباك على الطراز الطلياني بمشغولات زي الدانتيل، والبنا اتعلم يبني قبة ماتشقشق، والجناييني اتعلم يزرع ورد مش بتاعنا، وكان يقف محتار بين ريحة الياسمين البلدي. الباشا كان بيبني لنفسه، بس ساب لنا صنعة.

ولما البشوات مشيوا سنة 52، القصور فضلت. رأس التين بقى رئاسي، والمنتزه بقى جنينة الناس كلها بتدخلها بتذكرة ببريزة، والصفا بقى يستقبل الضيوف.

أنا مرة دخلت المنتزه بعد ما اتفتح للشعب، قعدت مطرح الملك على نفس الكرسي الحجر اللي كنت بشوفه من بعيد أيام ما كنت بروح لجوز خالتى. حطيت إيدي على الحجر السخن من الشمس، قلت في سري يا سلامة، انت قعدت مكان الباشا، بس البحر لسه شايفك انت وهو زي بعض. لا انت أعلى منه ولا هو أعلى منك. الباشا كان فاكر القصر هيخلده،

وطلع اللي خلده هي الجنينة اللي سابها للناس.

عشان كده لما تمشوا جنب أي قصر، ما تبصوش على السور العالي. بصوا على البحر اللي قدامه. البحر هو الباشا الحقيقى، والباقي كله ضيوف. الضيف لما بيمشي، ساب الكرسي. والكرسي قاعد مستني اللي يعرف قيمة البحر.

الفصل الرابع عشر

الجد سلامة قاعد في المغربية وبيعدل النضارة، وسمع زنة مكنة بعيدة؛

ياااه... مكنة شالوم دي ولا إيه؟ من سنة 48 وهي بتزن في ودني. وأنا سرحان لقيت الولا يوسف حفيدي خبط على ركبتي. قال لي :

_"يا جدو، انت وعدتنا المرة اللي فاتت هتحكي عن الحواري القصور خلاص شبعنا منها."

ضحكت قلت له :

_"قوم البس شبشبك. وهات اخواتك وولاد عمك. الحواري ما بتتحكيش وانت قاعد، الحواري بتتمشي فيها."

خـدتهم ومشـــينـا. لا ركبنـا مشـــروع ولا ترام. رجلينـا ودتنـا المنشـــيـة، ومن المنشـــيـة دخلنـا حـارة ضـــيقـة علـى الـفـراهـدة. الـحـارة دي مش على الخريطـة للســـيـاح، دي شـــيـاخـة من شـــياخات اللبان، واســـمها لســـه متســـجل "حارة الفراهدة".

أول مـا تـدخـل، ريحـة القمـاش المبلول على ريحـة البصـــل من شـــبـاك أم عبـده تخبطـك. مكن ســـنجر بيزن تـك كـأنـه بيقول صـــبر صبر، وعيال شايلة توب قماش بتجري.

وقـفـت قـدام دكـان بـابـه خشـــب أخضـــر متقشر. قلت ليوسف :

_"هنـا كـان دكـان الخواجـة شـــالوم."

ســـنـة 47 كـان ابن خـالتي عبـده عنـده 14

سنة، صبي بيلم قصاقيص تحت المكنة. شالوم ده لا كان باشا ولا خواجة، كان سكندراني يعرف الفرق بين الكتان والبوبلين بشمة مناخير. كان يقول لعبده "الخياطة مش إبرة يا عبده، الخياطة صبر. القماش زي الست، لو شديته يتقطع، لو دلعته يبقى جلابية ملكي." وأنا كنت بزوره عشان أبوه كان متوفي، وضربت صحوبية مع شالوم.

ليلة 48، بعد ما الدنيا ولعت، أنا بسميها النقطة السودة. سودة عشان الإنسانية نفسها انكسرت قدام عيني وأنا شفت الكبار اللي كنت فاكرهم جبال، خالي وعم مصطفى القهوجي، قاعدين بيشربوا شاي

ومش لاقيين كلام يقولوه. العجز كان طعمه مر في بُقنا كلنا. كنا بنسمع في الراديو عن قرى بتتفضى، عن عيال بتموت. وكنا في إسكندرية بناكل ونشرب والولاد بتروح المدرسة. الإحساس بالذنب ده كان صعب.

المهم شالوم بعت عبده ينده عليا بعد ما قفل الدكان، الواد جه جرى من الفراهدة لبحري. الدنيا كانت هس هس. روحت رايح معاه. شالوم أول ما شافني طلع مفتاح نحاس تقيل من جيبه وحطه في إيدي. قال "خد يا سلامة. المكنة دي أمانة. مش عشان تمنها، عشان هي اللي هتأكّل عبده عيش لما أنا أمشي. أنا ماشي

عشـــــان خـايـف، وانـت قـاعـد انـت وعـبـده عشان ليكو حارة تستخبوا فيها."

تـانـي يـوم مـالـقـيـتـوش. لا هـو ولا مـراتـه راشـــيـل. الـدكـان بقى معـايـا وســـلمتـه لعبـده، مش بورق، بورث صنعة.

يوسف بص لي :

_"يعني شـــــالوم خلاص مشـــي؟ وعبـده راح فين؟"

قـلـت لـه :"عـبـده فـتـح الـدكـان واتـجـوز وخلف، وولاده النهـاردة همـا اللي شـــايلينـه. اســـتنى، القصـــة مـا خلصـــتش. اقعـد جنبي احكيلك عن باشا تاني قلبه كان هنا."

سحبت نفس وبصيت للدكان:

_تعالوا احكيلكم عن "أمير اسكندرية" اللي قلبه كان في الحواري مش في القصور.

الأمير عمر طوسون حفيد محمد سعيد باشا حفيد محمد علي الكبير. اتولد هنا يوم 8 سبتمبر 1872 ومات هنا يوم 26 يناير 1944. أبوه مات وهو عنده أربع سنين، ربته جدته الأميرة ملك بير، وبعتته سويسرا يتعلم، رجع بيتكلم أربع لغات. اتجوز الأميرة بهيجة حسن بنت الأمير حسن باشا ابن الخديوي إسماعيل فى أغسطس 1898، وطلع اسكندراني ابن اسكندراني.

هو أول رئيس للجنة الأولمبية سنة

1910، وأول واحد قال نروح فرساي نطالب باستقلالنا. نزل مع الخواجات يدور على الميناء الغرقان، وفي 33 طلع من أبو قير حاجات من تحت المية. صرف فلوسه على الكتب وعلى الغلابة، لحد ما الناس سموه "أبو الفقرا". كان بيمشي في الشارع على رجله، الناس توقفه.

كان له قصر في الغيط الصعيدي على المحمودية. جنينته كانت مفتوحة للمعارض، واتبرع بحتة منه لكنيسة سان جوزيف. القصر لسه واقف، بس الحكومة عاملاه مخزن كتب.

خلف سعيد وحسن وأمينة، والصغير

عصـــمـت اللي مـات وهو عنـده 14 ســـنـة وده اللي كسر قلب أبوه.

وأنـــا كنـــت بـــاجي الفراهـدة أســـمع الحكـــاوي. بيقولوا الأمير حســـن وهو شـــاب كـــان بينزل يتـفرج علـى دكـاكين الـقمـاش، وعينـــه جـت على بنـت الخيـاط اللي جنـب شـــالوم، فـاطمـة بنت المعلم نعمان.

راح لأبوه قاله :

_"يا بابا أنا عايز بنت الفراهدة."

الأمير عمر سكت وبعدين قاله:

_ "يـا حســـن، القصـــور ممكن تتـهـد، بس الأصـــل مـا يتـهـدش. لـو بتـحبـهـا عشـــان

أصـــلـهـا، روح. لو عشـــان تعـانـد النـاس، ارجع القصر."

أهـل الحـارة بيحكوا إنـه كـان بيعـدي كـل يوم يقف قـدام الـدكـان، ومرة ســـاب فلوس تحـت الباب عشان يجهزها.

وفـي الآخـر؟ مـاحـدش عـارف. نـاس تـقـول أبـوه خـاف مـن كـلام الـنـاس، ونـاس تـقـول البنـت خـافـت تسـيـب الحـارة واتجوزت ابن الـحـلاق وســـافرت رشـــيـد. الـلـي أكـيـد إن الأمير علم ابنـه: "البـاشـــا الحقي اللي قلبـه مع الناس، مش اللي سور قصره عالي."

يوســف مســك إيدي "يعني شـــالوم ســـابلك المكنة، والأمير ساب كلمة؟"

حطيت إيدي على كتفه:

_ "أيوه يا ولا. الباشا بنى قصر بالحجر والحجر وقع، وشالوم ساب مكنة والمكنة فضلت شغالة، والأمير ساب كلمة والكلمة لسه عايشة."

المغربية أذنت، واحنا راجعين عدينا من قدام قصر طوسون. الشباك المكسور باصص علينا. قلت ليوسف :

_"كنت بشوفه واقف هنا زمان."

المكنة جوه الحارة عملت تك كمان مرة، كأنها بترد الأذان. يوسف بص للباب الخشب لقاه مطفي، بس الزنة لسه في ودنه. فهم إن الحكاية بتتورث مش بالصوت، بالقلب.

_"عشان كده لما تمشوا في الفراهدة،

بصـــوا على الـدكـاكين القـديمـة. يمكن تلاقوا شـــبـاك لســـــه فـاكر عين أمير، ومفتـاح نحـاس لسه بيفتح باب رزق."

الفصل الأخير

واحد وعشرين سنة مروا

والأحفاد قاعدين في الصالة الكبيرة بتاعة بيت الجد سلامة في بحرى بعد ابو العباس على البحر على طول . 2006 كانوا لسه عيال، و2027 بقوا ناس كبيرة شايلة شنط سفر وهموم شغل وعيال. الجد سلامة مات في شتا 2006، على نفس الكنبة اللي لسه محطوطة تحت الشباك، والراديو الخشب القديم لسه فوقها بس ساكت.

البيت كان هيتباع. الورثة اتفقوا يتقابلوا آخر مرة قبل ما المفتاح يتسلم. مش عشان الفلوس، عشان يقفلوا الباب وهما فاكرين.

يوسف جه من القاهرة بدري، لابس قميص أبيض ومكرمش من السواقة. آدم نزل من طيارة دبي قبلها بساعتين وشنطته لسه بعجلها. ليلى جابت معاها بنتها الصغيرة "سلمى"، كريم جه متأخر كالعادة ومعاه كيس فيه شاي العروسة اللي كان الجد بيحبه. وليد، أصغر واحد، كان واقف بيصور البلكونة بموبايله قبل ما تتهد.

قعدوا على الأرض زي زمان، لأن الكراسي اتشالت. وليد فتح الشباك، فدخل هوا البحر بتاع شهر ستة، مالح ودافي. ليلى عملت الشاي على البوتاجاز القديم اللي بيولع بالكبريت.

يوسف مسك كوباية الشاي وقال:

_"فاكرين لما السخان باظ في 2004 وكلنا كنا هنستحمى بمية ساقعة؟ جدو سلامة جاب المفك الأحمر بتاعه، وقعد على الأرض ساعتين. أنا كنت فاكره هيبوظه أكتر. في الآخر قال لي: يا يوسف، الراجل مش اللي بيعرف يشتري جديد، الراجل اللي بيعرف يصلح قديم."

يوسف بقى دكتور عظام دلوقتي، وبيقول إن أول مرة حس إنه يقدر يفك ويركب حاجة كانت مع المفك ده. المفك لسه في درج المطبخ. طلعه ووراه لهم، مصدي بس لسه شغال.

آدم ضحك: "وأنا فاكر إنه بعد ما صلحه،

قعد يحكي لنا إن السخان ده شبه البني آدم، لو سبته من غير ما تسمع صوته، يصدي من جوه."

آدم كان دايماً بيسافر. الجد كان بينده له "يا بحّار".

"جدو عمره ما ركب مركب أكبر من فلوكة بحري، بس كان حافظ البحر كأنه كتاب. كان يقول لي: البحر مش بياخد، البحر بيرجع. اللي ترميه فيه بإيدك، يرجع لك في شبكتك بعد سنة. كنت بفتكره بيهزر. لما سافرت أول مرة دبي وكنت حاسس إني تايه، افتكرت الجملة دي. بقيت كل ما أتعب، أرمي حاجة كويسة،

مكالمة لأمي، مساعدة لحد، وأستنى البحر يرجعها."

وليد صوره وهو بيحكي، وقال:

_ "أنا مش فاكره كويس، كنت عندي 8 سنين لما مات. بس فاكر ريحة الجلابية بتاعته، كانت دايماً فيها دخان وريحة يود. وكنت كل ما أقع، يشيلني ويقول: الأرض بتسلم عليك، ما تزعلش منها."

ليلى فتحت شنطتها وطلعت كراسة قديمة، غلافها أزرق.

_"دي كراسة الوصفات بتاعته. مش أكل، وصفات كلام. كان بيكتب لي فيها حكايات عشان أنام. هنا كاتب: سنة 1968 زرعت

تينة في الجنينة، ماتت في النوة، زرعت غيرها 1970، طرحت بعد 6 سنين. الصبر مش انتظار، الصبر زرع."

التينة لسه واقفة ورا البيت، كبيرة وضلة. كريم قام بص عليها ولقى النعناع طارح زى زمان قطع منه عودين وحطهم في الشاي زي ما الجد ما كان بيعمل.

كريم قال:

_"أنا فاكر حاجة تانية خالص. فاكر لما كنت بسقط في الحساب وكان بيقعد يضحكني. يقول لي: يا كريم، الدنيا زي الجمع والطرح، لو فضلت تجمع ناس بتحبك وتطرح ناس بتأذيك، هتطلع في الآخر كسبان حتى لو حسابك غلط."

كلهم ضـــحكوا، لأن كريم فعلاً بقى مهنـدس ولسه بيكره الحساب.

الساعة 7 المغرب

النور قطع زي مـا كـان بيقطع زمـان. ليلى ولـعـت شـــمـعـة وحطتـهـا في نـفس الطبق النحـاس اللي كـان الجـد بيحط فيـه الشـــمـعـة لمـا الراديو يفصـــل. في الضـــلمـة، الصـــوت بقى أوضح.

يوسف قال:

_"إحنـا بقينـا أكبر من الســـن اللي هو مـات فيـه. كـان عنـده 88 ســـنـة لمـا مـات . أنـا دلوقتي 43. غريبـة إنـك توصـــل لســـن حـد كنت شايفه نهاية العالم."

آدم رد: "بس هو ما ماتش فعلاً. يعني 21 سنة عدت، وإحنا لسه بنحكي كأنه كان هنا امبارح. مش ده معناه إنه عايش؟"

وليد، اللي كان ساكت طول القعدة، قال حاجة خلتهم كلهم يسكتوا:

_"أنا بخاف أنسى صوته. كل ما بحاول أفتكره، بفتكر الكلام بس. بس النهارده وأنا بصور البلكونة، سمعت صوت المروحة وهي بتحك في السقف، نفس الصوت اللي كان بيخليني أنام على حجره. ساعتها افتكرت صوته بيقول لي: نام يا وليد، بكرة البحر عالي."

ليلى دمعت وشالت بنتها سلمى على حجرها:

_ "عشان كده سميتها سلمى. مش عشان الاسم، عشان لما أكبر وأنسى، هي تسألني مين سلامة، فأحكي."

قعدوا لحد نص الليل. ما اتكلموش في البيع ولا في الفلوس. لمّوا الحاجات الصغيرة اللي ليها معنى: المفك الأحمر، الراديو الخشب، كراسة الوصفات، طبق النحاس، وزرعة نعناع من الجنينة.

قبل ما يمشوا، يوسف وقف في نص الصالة وقال زي ما الجد كان بيقول لما حد يسافر:

_"البيت مش طوب. البيت ريحة شاي، وصوت ضحكة، وحكاية بتتعاد. لو حفظتوا التلاتة، هتلاقوني مستنيكم حتى لو البيت ده بقى عمارة."

خرجوا وقفلوا الباب بالمفتاح الكبير اللي بيزيق. وليد لزق على الباب ورقة صغيرة كتب فيها بخطه: "هنا عاش سلامة. 1918 - 2006. ولسه عايش فينا 2027".

وهما نازلين على السلم، سمعوا صوت جرس عجلة بيعدي في الشارع، نفس الصوت اللي كان بيصحيهم زمان عشان يشتروا عيش سخن. آدم بص لهم وقال: "هو ده البحر، بيرجع."

واحد وعشرين سنة عدت على وفاة الجد سلامة، بس في الليلة دي، وهو مش موجود، كان أكتر واحد حاضر. مش في الصور، في طريقة يوسف وهو بيصلح الفيشة اللي كانت مهزوزة قبل ما يمشي، وفي صبر ليلى وهي بتحكي لبنتها، وفي هزار كريم، وفي سفر آدم، وفي خوف وليد إنه ينسى.

الختام مش إن الحكاية خلصت. الختام إنها لقت خمسة جداد يحكوها.

ولما وصلوا تحت، ليلى قالت:

_"نتقابل هنا امتى؟"

كريم ضحك: كل سنة. عشان ما نحتاجش 21 سنة تانية عشان نفتكر."

ومشـــيوا، وريحـة النعنـاع والشـــاي لســـه طـالعـة من الشـــبـاك المفتوح، كـأن حـد لســـه قاعد جوه مستني الشاي يخمر.